أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٥)

التفسير: يتبين بكل وضوح من قوله تعالى (أياما معدودات) و (فعدّة من أيام أُخَر) أن الصيام الذي أُمِرنا به ليس صيام تطوع، وإنما هو الصيام المفروض الواجب. لذلك قال إنه إذا كان أحدكم مريضا أو مسافرا فعليه أن يكمل عدة أيام الصيام المقررة بصوم أيام أخرى على أية حال، ولا يمكن أن يقول إنني كنت مريضًا أو مسافرًا في رمضان.. فلماذا أصوم بعد رمضان؟ فيخطئ الذين يرون أن قوله تعالى (كتب عليكم الصيام) لا يتناول ذكر صيام رمضان المبارك وإنما يذكر الصيام التطوعي. فأولا يتبين من قوله تعالى (أياما معدودات) أنه لم يتناول إلا ذكر صيام حدّد له الشرع أياما معينة، وثانيا يتبين من قوله تعالى (عدة من أيام أخر) أن هذا الصيام في أيام معينة في شهر معين، وإلا فلا معنى لقوله تعالى (عدة من أيام أخر).

ثم ينصح الله بأن من يكون مريضا أو على سفر فلا يصُمْ في مرضه أو سفره، بل يسد هذا الفراغ في أيام أخرى.

لقد رأيت بالتجربة أن هناك إفراطا وتفريطا عند المسلمين بصدد الصيام. فهناك بعض المثقفين الذين لا يؤمنون ببركات رمضان، ويتركون الصوم بدون مرض أو عذر شرعي. وعلى النقيض.. هناك من المسلمين من يحصرون الإسلام في الصيام، ويتوقعون من كل شخص، وإن كان مريضًا أو ضعيفًا أو شيخًا هرمًا فانيًا أو طفلاً صغيرًا أو سيدة حاملاً أو مرضعة أن يصوم في كل حال، وإن زاده الصوم مرضًا أو أضر بصحته. كلا الفريقين واقع إما في الإفراط أو التفريط. إن الإسلام لا يريد أبدا أن يُبعد الإنسان عن طريق نجاحه وفلاحه. لو كانت الشريعة غرامة لاضطر كل شخص لتحملها، سواء قدر عليها أم لم يقدر كغرامات الحكومات. إذا فرضت الحكومة على شخص غرامة فلا تنظر الى مقدرته أو عدم مقدرته على أدائها، وإنما تطالبه بأدائها وإن اضطر إلى بيع داره أو إلى الجوع والدَّيْن. ولكن يتجلى من

القرآن أن الأحكام الإسلامية ليست غُرما، وإنما هي لفائدة الإنسان ولمنفعته، وينال بالعمل بها راحة وتنفتح أمامه طرق رقيه. إن الأديان التي تعتبر الشريعة غرامة لا بد لأتباعها من العمل بأوامرها مهما حدث، ولكن الدين الذي لا يستهدف إلا منفعة الإنسان، فإنه–عند العمل بأحكامه –يُقارَن بين ما ينفع ويضر، ويُختار ما نفْعه أكثر. ولذلك فإن الإسلام قيَّد كل أحكامه ببعض الشروط، وإذا توافرت في أحد عمل بها، وإن لم تتوافر تركها وهو معذور. و لم يضع الإسلام هذه الشروط في العبادات البدنية فقط، بل في العبادات المالية أيضا مثل الزكاة، وفيما يهدف إلى التضحية من أجل الشعب، وإلى الاتحاد والتواصل مثل الحج. فالحج مشروط بتوافر المال والصحة والأمن؛ والزكاة مشروطة بتوافر مقدار معين من المال يزيد على حاجاته ويبقى عنده لسنة؛ والصلاة مشروطة بالصحة، فيصلي المرء جالسا إذا لم يستطع القيام، أو مستلقيا إذا لم يستطع الجلوس.

كذلك اشترط الإسلام لصيام رمضان أن لا يكون الإنسان مريضا.. سواء كان قد أصيب بالمرض فعلا، أو يتهدده المرض إن صام. كما في حالة الحامل والمرضع، أو الشيخ الفاني الذي تدهورت قواه، أو الطفل الصغير الذي في طور النمو.. فعلى كل هؤلاء ألا يصوموا. إن صوم المسافر أو المريض لغوٌ كصوم الحائض، من ذا الذي لا يعرف أن الحائض إذا صامت فليس فيه أي حسنة، بل هو جهل وغباء. كذلك صوم المريض أو المسافر ليس حسنة. كذلك ليس من البر أن يصوم شيخ هرم اضمحلت قواه ويحول الصوم دون قيامه بأشغال الحياة الأخرى. كذلك ليس من الحسنة صوم طفل تنمو قواه، ويدخر جسمه من الطاقة والقوة ذخيرة تكفيه لخمسين أو ستين سنة قادمة في حياته. ولكن القادر على الصوم بمعنى الكلمة.. إذا لم يصم فهو آثم.

ولنعلم أن الشريعة الإسلامية قد منعت الصغار الذين هم في سن صغير جدا من أن يصوموا، ولكن إذا أوشكوا على البلوغ وجب تدريبهم على بعض الصيام. إن سيدنا المهدي والمسيح الموعود عليه السلام قد سمح لي بالصوم –فيما أذكر –عندما كنتُ في الثانية أو الثالثة عشرة من عمري. ولكن بعض الحمقى يُكرهون صغارهم

على الصوم وهم في السادسة أو السابعة من عمرهم. ويظنون أن هذا عمل صالح. هذا ليس عمل ثواب وإنما ظلم. هذا السن سن نموهم. نعم عندما يوشكون على سن البلوغ والصوم يجب تدريبهم على الصيام. ولو نظرنا إلى إذْن وسُنة سيدنا المهدي.. فالسّن المناسب لذلك هو الثاني أو الثالث عشر. فيجب أن يصوموا عندئذ بضعة أيام في كل رمضان.. إلى أن يبلغوا الثامنة عشرة –وهو سن البلوغ عندي. أتذكر أن سيدنا المهدي سمح لي بالصوم ليوم واحد في أول مرة. في هذا السن يكون عند الصغار شوق للصيام. ويريدون أن يصوموا أكثر من يوم، ولكن من واجب الآباء أن يمنعوهم من ذلك. ثم يأتي سن يجب فيه على الآباء أن يشجعوهم على صيام بضعة أيام، ويراقبوهم حتى لا يتجاوزوا الحد. وكذلك يجب على الآخرين أن لا يعترضوا على الصغار ويقولوا لماذا لا يصومون؟ فهذا الصغير لو صام في هذا السن الباكر لم يقدر على الصوم عندما يكبر. ثم إن بعض الأطفال ضعيفو البنية والخلقة. ولقد رأيت بعض الأطفال يأتون مع آبائهم لزيارتي، ويخبرني الأب أن الطفل في الخامسة عشرة مثلا من عمره.. مع أنه يبدو ابن سبع سنوات. أرى أن مثل هذا الطفل لا يبلغ سن الصيام إلا قريبا من الحادي والعشرين. وعلى النقيض يكون هناك بعض الأطفال الأقوياء الذين يبدون في الثامنة عشرة من عمرهم بينما في الحقيقة هم في الخامسة عشرة. ولو أن هؤلاء أخذوا بظاهر كلماتي، وقالوا إن سن الصوم هو الثامنة عشرة، فإنهم لا يظلمونني، ولكن أنفسهم يظلمون. وكذلك لو أن أحدا عاب صغيرا لم يصم صوما كاملا.. فلا يظلم إلا نفسه.

على الإنسان أن يكون حذرا في هذه الأمور، فينتهي حيث ينهاه الشرع ويعمل بما يأمر به الشرع. ولكن المسلمين في هذه الأيام قد تركوا جادة الاعتدال، فبعضهم لا يصوم إطلاقا، والبعض الآخر يواظب على الصوم لدرجة أنه يرى الصوم ضروريا حتى في السفر والمرض. وبعضهم يتشدد فيه، فيجبرن الصغار على الصوم، ولو أرادوا الإفطار قبل الغروب فلا يسمح لهم بذلك. وهناك أحداث عديدة صام فيها الصغار في سن السابعة أو الثامنة، وراقبهم آباؤهم حتى لا يفطروا، فماتوا من شدة

الجوع. ولا شك أن من واجب الآباء أن يولدوا في قلوب الصغار أدبا واحتراما للصيام، ويخبروهم أنهم إذا لم يستطيعوا إكمال الصوم فعليهم ألا يصوموا. ولكنهم إذا صاموا وراقبهم آباؤهم حتى لا يفطروا وإن أوشكوا على الموت.. فهذا ظلم شنيع ومخالفة صريحة لتعاليم الإسلام.

وعلى جانب آخر هناك فئة لا تؤمن بضرورة الصيام وخاصة المثقفين منهم. أتذكر جيدا أنني في زمن سيدنا المهدي قرأت في الجرائد أن شخصا من تركيا أو مصر يزور الهند، ويقول في خطاباته أن الرسول ﷺ لو كان في هذا الزمن لغيّر شكل الصيام، فلنغيّر معالم الصوم الآن.. لأن الزمن قد تغير. وكان يقترح ألا يأكل الصائم الخبز. ولكن يُسمح له بأكل الكعك والبسكويت وغيره!

فهناك إذن طبقة من المسلمين مالت إلى الإفراط، وطبقة أخرى مالت إلى التفريط.. مع أن الإسلام دين الوسط. فإذا كان يسمح للمسافر والمريض بألا يصوما في السفر أو المرض.. فإنه يفرض على المسلم البالغ الصحيح أن يصوم شهر رمضان، ويقضي هذه الأيام المباركة في عبادة الله وتسبيحه وتحميده وتلاوة القرآن الكريم والأدعية والذكر ليحظى بقرب الله تعالى. على أية حال، فإن الشرع الإسلامي قد أكد على الصيام أيما تأكيد، وكما أنه لا يجوز التشدد في الصيام كذلك لا تجوز الاستهانة به. إذن، فعلينا ألا نتشدد فنزهق الأرواح والنفوس، كما يجب ألاّ نتهاون فيه بما يُعتبر هتكا للصيام وتنصُّلا من أداء الواجب بمختلف الأعذار.

قد رأيت أن بعض الناس لا يصومون بحجة أن الصوم يسبب لهم ضعفا، وبعضهم يقولون لو صاموا يصابون بالإسهال.. مع أن هذه الأعذار لا تكفي للإعفاء من الصوم. ما لم يُصب الإنسان بالإسهال بسبب الصيام يجب أن يصوم، وعندما يصاب بالإسهال يتوقف عن الصوم. وحجة الضعف أيضا ليست مقبولة، وإنما يمكن أن يترك الإنسان الصوم بسبب ضعف يوافق عليه الطبيب ويُعفى به من الصوم. وإلا فإن بعض الناس ضعفاء على الدوام، فهل يمتنعون عن الصوم أبدا؟ كنت في الثالثة من عمري عندما أُصبت بالسعال الديكي، ومنذ ذلك الوقت لا تزال صحتي متأثرة. ولو كان مثل هذا الضعف يجيز ترك الصوم لم تكن أمامي

فرصة لصوم يوم واحد طيلة حياتي. إن الضعف الذي يتخذونه مبررا لترك الصيام ما فُرض الصيام إلا لتدريبهم على تحمل نفس هذا الضعف. فمثلهم كمثل الذي يقول إن القرآن يقول: إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأنا لا أصلي لأن الصلاة سوف تضطرني لترك الفحشاء والمنكر! الغاية والهدف من الصيام هو أن يتدرب الإنسان على تحمل الشدائد ويتعوّد على التغلب والضعف.. وإلا لكان لكل امرئ أن يمتنع عن الصوم قائلا: لا يمكن أن أصوم لأني أصاب بشدة الجوع والعطش. هل يتوقع الصائم أن الملائكة سوف تملأ بطنه طوال اليوم بالشّواء؟ كلا، بل كلما يصوم يضطر لتحمل شدة الجوع والعطش ويصاب بشيء من الضعف؟ مما لا شك فيه أن للصوم حِكما أخرى منها أن الصائم يلتفت بصيامه إلى إعانة الفقراء والجياع، ولكن لا يصوم الإنسان كي يتعرض للمشقة والضعف، وإنما يصوم ليتعوّد على تحمل هذه المشقة والضعف. فليس من الجائز أن يترك الإنسان الصوم خوفا من الضعف، إلا أن يكون قد بلغ سن الشيخوخة، أو أن الطبيب يعتبر ضعفه مرضًا.

إلا أن القرار بضعف أحد لا يؤخذ بظاهر صحته وبادي حاله. فبعض الناس يبدون أصحاء في الظاهر ويمشون كالأصحاء، ولكنهم في الحقيقة مرضى، ولا يجوز أن يصوموا.. خاصة أولئك الذين هم مصابون بمرض القلب، ويعرضهم الجوع والعطش لخطر كبير. فمعرفة ضعف الإنسان لا يتوقف على مظهره، وإنما يجب أن يُترك لرأي الطبيب. وللأسف أن كثيرا من الأطباء في بلادنا لا يؤدون واجبهم بأمانة.. لو حيّاهم أحد وانحنى لهم لكتبوا له من الوصفات ما شاء. ومثل هذه الشهادة لا اعتبار لها ولا قيمة. ولكن إذا أشار الطبيب بالفعل أن الصوم ضار بصحة أحد فلا يُنظر إلى ظاهر صحته، بل لا يجوز الصوم له. وهذه هي الفتوى التي أصدرها سيدنا المهدي عليه السلام.. إذ قال: "إن الذي يصوم في شهر الصيام في مرضه أو سفره فإنه يخالف حكمًا صريحًا لله تعالى. لقد نهى الله صراحة عن أن يصوم المريض أو المسافر، بل عليهما أن يصوما بعد الشفاء أو بعد انتهاء السفر. يجب العمل بما أمر به الله. فالنجاة متوقفة على فضل الله، وليس من الممكن أن ينال

أحد النجاة بقوة أعماله. إن الله تعالى لم يصرّح عما إذا كان المرض بسيطا أو شديدا، أو إذا كان السفر قصيرًا أو طويلاً.. بل الحكم عام ويجب العمل به. فإذا صام المريض والمسافر فلا بد أن يفتى ضدهما بمخالفة الأمر الإلهي ". (الفتاوى لسيدنا المهدي. ص١٣٢).

قوله تعالى (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين). لقد عانى المفسرون صعوبة كبيرة في تفسير هذه الجملة. وفسروها بعدة أوجه.. وكانت هذه الصعوبة بسبب اختلافهم في تعيين مرجع الضمير 'ه' في كلمة يطيقونه.

فبعضهم أرجعه إلى الصوم. وبعضهم أرجعه إلى (فدية طعام مسكين) منهم الشاه وليّ الله الدهلوي (كتاب الفوز الكبير، تحت هذه الآية). لكن يرِد على هذا القول اعتراض بأنه إضمار قبل الذِّكر.. أي أن الضمير ذُكر قبل الاسم؛ مع أن الواجب ورود الاسم أولاً ثم ضميره. وقد ردّ الشاه ولي الله أن "فدية" مقدّم نحوا.. أي مبتدأ، لذلك ذُكر ضميره قبل ذِكره.

والاعتراض الثاني على ما ذهب إليه الشاه الدهلوي أن كلمة (فدية) مؤنثة والضمير للمذكر؟ فرد عليه بأن الفدية بدلٌ من طعام والطعام مذكر، ولذلك يمكن أن يرجع الضمير إلى فدية مذكرا. والمعنى عنده أن الذين يقدرون على أداء الفدية عليهم أن يؤدوها في صورة طعام مسكين. ويرى أن في هذا إشارة إلى صدقة الفطر التي يجب أداؤها قبل صلاة العيد حتى تُوزع على الفقراء، فيشتركوا في أفراح العيد.

والمعنى الثاني الذي ذكره المفسرون أن على المؤمنين القادرين على الصوم أن يصوموا وأن يقدموا فدية طعام مسكين أيضًا (القرطبي). ولكن ليس بثابت من سنة النبي ﷺ ولا من أحاديثه أن على المسلم أن يصوم يؤدي الفدية أيضا، ولذلك لا يمكن أن يُقبل هذا المعنى. وكذلك من الناحية المنطقية هذا المعنى غير مقبول.. لأن الفدية تكون على من لم يصُم. أما الذي واظب على الصوم فأي فدية عليه؟ نعم إذا فكر أحد أن الله قد منَّ عليه بتوفيقه لهذه العبادة فصام وأطعم مسكينا فهذا يزيده ثوابا، ولكن هذه حسنة زائدة لم يُلزم بها القرآن.

والمعنى الثالث الذي ذكره المفسرون هو أن هناك محذوفا قبل الفعل يطيقونه تقديره "لا" والضمير في هذه الحالة يرجع إلى الصوم (البحر المحيط). والمعنى أن على الذين لا يقدرون على الصوم أن يُطعموا مسكينا فدية لذلك. ودليلهم على حذف "لا" هنا قوله تعالى (يبين الله لكم أن تضلوا) (النساء، ١٧٧).. والمعنى: أن لا تضلوا. هذا وإن كان بالإمكان هنا تقدير محذوف هو "مخافة" والمعنى: يبين الله لكم مخافة أن تضلوا.

والمعنى الرابع هو قولهم إن كلمة أطاق في العربية تعني أن يقوم أحد بعمل ما بجهد جهيد ومشقة بالغة، أي لا يقدر على القيام به إلا بإرهاق نفسه إرهاقا شديدا (البحر المحيط). فالمعنى عندهم أن الذين يصومون بمشقة بالغة وتضمحل قواهم البدنية حتى يغشى عليهم أحيانا من شدة الضعف، مثل العجوز الفاني أو المريض بقلبه أو ضعيف الأعصاب أو الحامل والمرضع. هؤلاء الذين لا يَبدون مرضى في الظاهر ولكنهم إذا صاموا مرضوا.. فمسموح لهم أن يعطوا طعام مسكين كفدية بدلا من أن يصوموا.

ويؤيد هذا المعنى قراءة ذكرها العلامة القرطبي وهي (يُطَوَّقونه).. أي الذين يصومون ببالغ الشدة والصعوبة. والذين تتدهور صحتهم بالصوم تدهورا مخيفا.. فيجوز لهم ألا يصوموا، ولكن عليهم إطعام مسكين فدية (القرطبي).

وعندي أن "أطاق يطيق" من باب الإفْعال، ومن خصائص هذا الباب سلب المعنى العادي وإعطاء المعنى المضاد. فيعني قوله تعالى (الذين يطيقونه).. الذين سُلبت قوتهم وضاعت ولا يطيقون الصوم.. فلهم ألا يصوموا، ولكن ما داموا يتركون الصوم بمحض الاجتهاد الذي فيه احتمال الخطأ، وليس بمرض ظاهري وإنما بناء على خوف متوقع، لذلك عليهم أن يُكفِّروا عن هذا الخطأ الاجتهادي بتقديم طعام كفدية إن استطاعوا ذلك.

وهناك معنى آخر فتحه الله عليّ.. ذلك أن الضمير في (يطيقونه) يعود على الصوم، والمراد أن الذين مرضهم شديد وسفرهم شاق.. عليهم (عدة من أيام آخر).. فيكملون ما فاتهم من صيام في أيام أخر، ولكن المصابين بمرض عادي بسيط أو

الذين خرجوا لسفر غير شاق غير صائمين فعليهم أن يقدموا طعام مسكين فدية.. ذلك لأنه من المحتمل أن يكونوا مخطئين في ترك الصوم، ويظنون أنهم مرضى ولكنهم عند الله ليسوا في مرض يعفيهم من الصوم، أو يظنون أنهم على سفر ولكنهم ليسوا عند الله في سفر. وما دام قرارهم معرّضا لاحتمال خطأ في كل حال.. فيجب على هؤلاء إذا كانوا قادرين على الصوم أن يكملوا عدة أيام الصيام الفائتة في أيام أخر.. ذلك فضلا عن أن يطمعوا مسكينا حتى يكون كفارة لخطأ محتمل من جانبهم.

أما إذا كان الضمير في (يطيقونه) راجعا إلى (فدية طعام مسكين) كما قال الشاه ولي الله الدهلوي.. فليس المراد من الفدية صدقة الفطر، وإنما يكون قوله تعالى (فدية طعام مسكين) متعلقا بقوله تعالى (فمن كان منكم مريضا أو على سفر) والمعنى: وإن كان قد رُخص للمريض والمسافر بالصيام في أيام أخرى.. ولكن مَنْ كان في سعة وقادرا على إطعام شخص فليطعم مسكينا فدية لتركه الصوم أياما من رمضان. أما إذا لم يكن عنده القدرة على إطعام مسكين فلا معنى ولا مجال لأداء فدية لصيام رمضان. وإذا كان المانع مؤقتا وزال فيما بعد فلا بد أن يصوم، فالفدية لا تُسقط عنه الصوم الفائت، وإنما هي فدية لأنه لم يستطع –بسبب عذر شرعي– أن يشترك في العبادة مع سائر المسلمين في هذه الأيام المباركة. فالأعذار على نوعين: عذر مؤقت وعذر دائم، ويجب أداء الفدية بشرط القدرة عليه سواء كان العذر مؤقتا أو دائما. أما إذا زال العذر ولو بعد سنة أو سنتين أو ثلاث سنوات فعليه أن يصوم أيضا، وإن أدى الفدية.. اللهم إلا إذا كان عذر المرض مؤقتا من قبل.. وكان ينوي الصوم عندما يسترد صحته غدا أو بعد غد.. ولكن صحته تدهورت أكثر. وهذا هو مذهب الإمام المهدي والمسيح الموعود إذ كان يؤدي الفدية دائما للأيام الفائتة في رمضان وبعد ذلك يصوم أيضا؛ وهذا ما كان ينصح به الآخرين (الملفوظات شرح الكلمات: ٣ ص ٥٦٣).

وكلمة (الذين) في قوله (وعلى الذين يطيقونه) يمكن أن تكون بدلا من الفئتين: إما من المذكورين في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام)، أو

المذكورين في قوله تعالى (فمن كان منكم مريضا أو على سفر). ولو اعتبرناها بدلا من (الذين آمنوا) فالمعنى: أن الذين يُعانون صعوبة بالغة في الصيام لضعفهم ويقعون بسببه في مشقة شديدة، عليهم ألا يصوموا، بل يعطوا فدية طعام مسكين. وإذا اعتبرناها بدلا من (فمن كان منكم مريضا أو على سفر) فالمراد أن المرضى والمسافرين الذين يقدرون على أداء الفدية عليهم أن يؤدوها إلى جانب الصيام في أيام أخرى. فمن الأمراض والأسفار ما يكون ترك الطعام فيه اجتهادا مشتبها. وقد ورد في الأحاديث أن بعض المشتبهات تندرج تحت المحارم.. لأن الذي يصل إلى حد المشتبهات يتدرج إلى المحارم أيضا (البخاري، البيوع).

فإذا كان سفرهم أو مرضهم من الأمور المشتبهة المشكوك فيها، فعليهم أن يؤدوا الفدية، ويستفيدوا من هذه الرخصة، فلا يصوموا في أيام رمضان وإنما يصومون الأيام الفائتة في فرصة أخرى.

قوله تعالى (فمن تطوع خيرا فهو خير له) أي أن الذي يعمل الحسنات ببشاشة وشوق، ولو تكلّفًا في بادئ الأمر ومع شعور بثقل على نفسه، فسوف يرى أن هذه الحسنة تأتي له بنتائج جيدة. فالتطوع في اللغة العربية يعني أن يُثقل الإنسان على نفسه ويتكلف الطاعة (المفردات). فالله ينبه هنا إلى أن الإنسان إذا لم يقدر على العمل الحسن بانشراح الصدر.. فعلى الأقل يُكره نفسه عليه ويُظهر بشاشة في وجهة ولو تكلّفا، ولو فعل ذلك فتح الله له طرق الخير والبركة، أي أنه يرتقي في الحسنات حتى يصل إلى مقام يصبح فيه فعل الخير غذاء لروحه، ويسهل عليه تلبية النداء إلى أعمال الخير بمثل ما يسهل على المؤمنين الكمَّل.

إلا أن هناك معنى آخر للتطوع وهو أن يتبرع المرء بعمل ما لم يُلزم به. صرح بذلك الإمام الراغب في كتابه الشهير(المفردات). وبناء على هذا فالمعنى أن الذي يقوم بأعمال الخير نافلة فهذا خير له. لقد أُمرنا بالصوم في شهر رمضان وإطعام مسكين كفدية.. ولو زاد أحد على ذلك احتسابا لله فله ذلك.. يمكنه أن يطعم مسكينين بدلا من مسكين واحد كفدية، أو يصوم رمضان وأيضا يطعم مسكينا ثوابًا

واحتسابًا، أو يصوم أياما أخرى علاوة على صوم رمضان، فكل هذه أعمال يثاب صاحبها، ويمكن لأي مؤمن أن يشترك فيها قدر المستطاع لينال بها رضوان الله.

وقوله تعالى (وأنْ تصوموا خير لكم).. يفسره البعض: لو صُمتم فهو خير لكم. ولكن هذا المعنى غير صحيح، وإلا لقيل (وإنْ تصوموا) بدلا من (وأنْ تصوموا) وإنما المعنى الصحيح: لو أدركتم وعرفتم فإن الصيام خير لكم. أي أننا مهَّدنا لأمر ذي بركات وخير كثير.. فمن واجبكم أن تصغوا إليه وتعملوا به.

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٦)

شرح الكلمات:

هدى –مصدر بمعنى الفاعل، أي هادٍ للناس.

بينات–جمع بيِّنة وهي الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة (المفردات).

التفسير: يذكِّرنا شهر رمضان بتلك الأيام المقدسة التي نزل فيها للعالم كتاب كامل كالقرآن الكريم. تلك الأيام المباركة التي كانت فيها بداية سعادة الدنيا. الأيام التي فتحت أبواب رحمة الله وبركاته للعالم. الأيام التي ضاق فيها محمد رسول الله ﷺ برؤية وجه كريه للدنيا وسيئات أهلها.. وتوجه إلى غار حراء معرِضًا عن العالم، وتاركًا أقاربه وأصدقاءه، ليشتغل في ذكر الله تعالى.. ظنًّا منه أنه بفراره من الدنيا هكذا سوف يتمكن من أداء واجبه الذي خلقه الله لأجله.

في هذه اللحظات من الوحدة، وفي هذه الأوقات من الخلوة. وفي هذه الساعات من التدبر والتفكر.. جاء عليه شهر رمضان. وبحسب الراويات الموثوقة.. في الرابع والعشرين من رمضان. تلقّى هذا الذي أعرض عن الدنيا وآثر الانفراد والعزلة أمرا من خالقه وربّه ومعلمه ومحبه أن اذهبْ إلى الناس وادْعُهم ودُلّهم على طريق

الهدى. أنت تبحث عني في هذه الخلوة في غار حراء.. ولكنك ستجدني في أزقة مكة بين شغب الناس وضجيجهم. اذهب وبلِّغ قومك بأنني ما خلقتكم في هذه الدنيا في حالة أدنى ثم منها ربيتكم ورقَّيتكم.. لتأكلوا وتشربوا وتموتوا بدون أن تُسألوا عما فعلتم.

عندما تلقى هذا الصوت أخذته الدهشة، فقال لجبريل في حيرة: ما أنا بقارئ (البخاري، الوحي).. أي أنني أستغرب هذه الرسالة. هل تليق هذه الكلمات من فمي أمام أهل مكة؟ هل يُعير قومي أذنا صاغية لهذه الرسالة ويقبلونها؟ ولكن الله أمره باستمرار: اذهب واقرأ هذه الرسالة على الناس. عندئذ-تلبية لهذا الصوت وامتثالا لهذا الأمر-خرج النبي ﷺ من هذه العزلة واختار الخلوة وبرز لمحافل الناس. و لم تكن هذه المحافل بالنسبة إليه مكانا يجد فيه الإنسان صديقا يبث إليه شكواه، أو يسمع منه ما يفرحه ويسره، أو تزول فيه متاعبه النفسية، و لم تكن بالنسبة إليه مجالس للقصص والأساطير والشعر، أو مجالس يتجاذب فيها الناس أطراف الحديث في المناظرات والمباحثات.. وإنما كانت ندوات يُبدي فيها النبي ﷺ حبه وإخلاصه للطرف المقابل.. ويتلقّى منه السباب والشتائم والتهديد والتخوف دائما. كانت ندوات لو زارها الإنسان مرة لم يبق في قلبه رغبة لزيارتها بعد ذلك. كان يتلقى من السباب والوعيد ما يجعلهم يظنون أنه لو كان عنده أدنى حس وشعور فلن يكرر حديثه لهم غدا. كانوا يفرحون أنهم أسكتوا محمدا اليوم، ولكن عند طلوع شمس يوم جديد كان هذا العاشق الصادق لله يخرج مرة أخرى لتبليغ رسالة ربه لأهل مكة، ومرة أخرى يتلقى نفس السباب والوعيد والتخويف إلى أن يحل المساء. وعندما يحول حاجز الليل بينهم وبينه كانوا يرجون أن يكون قد آثر السكوت وقرر الصمت من اليوم. ولكن كيف يمكن لمن كان نداء الله يدوي في آذانه أن يرتعب منهم فيسكت؟ لو كان يقضي ليله نائما لنسي هذه الرسالة، ولكن مَن نومه كيقظته كيف ينساها؟ إن الدرس الذي لا يعاد ولا يراجَع يمكن نسيانه، ولكنه ﷺ كان بمجرد أن يأوي إلى فراشه يسمع نداء (اقرأ) فكيف يمكن –والحال هذه –أن ينسى الرسالة؟

في شهر رمضان تلقى النبي ﷺ هذا النداء، وفي رمضان نفسه خرج من غار حراء لتبليغ الناس رسالة الله، وإلى ذلك يشير قوله تعالى (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) وأيضا قوله تعالى (إنا أنزلناه في ليلة القدر. وما أدراك ما ليلة القدر) (القدر).

ورمضان من الرمض الذي يعني الحرقة (الأقرب)، وسواء كانت حُرقة الشمس أو حُرقة المرض. فمعنى رمضان: موسم الشدة والصعوبة. وفي سورة القدر قال: إنا أنزلناه في ليلة، والليل أيضا يدل على الظلام والمصيبة. وهكذا بيّن الله في الآيتين أن نزول الوحي والإلهام يتم في أيام الشدائد والمصائب. فما لم يتعرض قوم إلى المصائب والبلايا، وما لم يتحول نهارهم إلى ليال حالكة، وما لم يذوقوا شدة الجوع والعطش، وما لم يتحمل الجسم الإنساني الشدائد من الداخل والخارج.. لا يمكن أن يترل عليهم كلام الله تعالى.

وبانتخاب هذا الشهر لترول القرآن أمّل الله المسلمين أنكم إذا أردتم أن ينفتح عليكم باب كلام الله، فلا بد لكم من المرور من أتون المصائب والمحن، وبدون ذلك لا يمكن أن تتيسر لكم نعمة مكالمة الله تعالى. فرمضان يذكِّر المسلمين بكلام الله، ومن أجل ذلك أمر النبي ﷺ بالإكثار من تلاوة القرآن في رمضان، ولذلك نهتم –نحن الجماعة الإسلامية الأحمدية –بإلقاء دروس القرآن الكريم فيه. فعلى الإخوة أن يكثروا في هذا الشهر من تلاوة القرآن الكريم، والتدبر في معانيه، حتى تتولد فيهم روح التضحية التي لا يمكن أن تزدهر أمة بدونها.

هذا الشهر يعلِّم أن الذي يريد الغلبة على الدنيا فعليه أن يختار عزلة كعزلة غار حراء، فالدنيا لا تُنال إلا بتركها. يجب الابتعاد عنها وتركها أولاً.. وعندئذ يمكن التغلب عليها. ولكنها غلبة روحانية. هناك غلبة مادية مثل التي حققها "الدجال" وسبيلها أن يَقِفَ الإنسان نفسه لأجل الدنيا، ولكن الذي يريد الغلبة على الدنيا مع بقائه عبدا لله فلا سبيل له إليها إلاّ بتركها. إن أبا جهل سعى لينال الدنيا فنالها، ولكن رسول الله ﷺ تركها ومع ذلك نالها، بل نالها بما هو أعظم من أبي جهل. كان أبو جهل رئيسا وكبيرا من كبار أهل مكة، ولكن الرسول ﷺ أصبح في

حياته ملكا على الجزيرة العربية، ثم صار فيما بعد ملكا على العالم كله. فمتى نال أبو جهل من الدنيا ما ناله الرسول ﷺ؟ ولكن ما حققه أبو جهل من الدنيا حققه بجهد وسعي لها، ولكن ما ناله المصطفى منها فقد ناله بتركها. فالدنيا تأتي للجماعات الروحية إذا تركوها. أما أهل الدنيا فينالونها بكسبها وبذل الجهود لها. يعلمنا رمضان أنكم إذا أردتم النجاح في أهدافكم للزم أن تقبلوا الشدائد والمصائب، وترضوا بظلمات الليالي، وألا تخافوا منها لأنها سبب نجاحكم.

فرمضان شهر له أهمية كبيرة خاصة، والذي في قلبه حب صادق للإسلام واهتمام بالإيمان لا بد أن يشعر بهيجان خاص في قلبه، ورعدة سارية في جسمه.. كلما حل شهر رمضان.. مهما طالت القرون بيننا وبين سيدنا محمد ﷺ.. ومهما باعدت السنون والأيام بيننا وبين سيدنا محمد ﷺ.. إلا كلما حلَّ علينا رمضان شعرنا أن هذا الشهر طوى كل هذه الشقة من الشهور والسنين والقرون، وقرّبنا من محمد رسول الله ﷺ. لم يقربنا إليه فحسب، بل بما أن القرآن نزل من الله فيخيل إلينا أن رمضان قد طوى هذه المسافة وأوصلنا إلى الله. هذه المسافة التي تكون بين الإنسان وبين الله، والبعدُ الذي يكون بين المخلوق والخالق، والشقة التي تكون بين عبد ضعيف حقير وبين خالق السماوات والأرض.. قد انكمشت وانمحت وزالت زوال ظلمة الليل بأشعة الشمس. وإلى هذه الحالة يشير الله في قوله تعالى (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب). عند حلول رمضان يسألك عبادي: كيف يمكن لنا الوصول إلى الله؟ فقل لهم إن مجيء رمضان هو بمثابة مجيء الله تعالى. إن هذا هو الشهر الذي تجلّى الله فيه لعباده، وأراد فيه أن يجتذبهم إليه بكلامه الذي هو بمثابة حبل الله.. طرف له عند الله وطرفه الآخر في يد العباد، ومن واجبهم أن يتسلقوا بهذا الحبل ليصلوا به إلى الله تعالى.

ولقوله تعالى (شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن) ثلاثة معان:

الأول —وردت (في) بمعنى السبب والعلة، والمعنى أن شهر رمضان هو ذلك الشهر الذي لأجله نزل القرآن الكريم. أي أن صيام رمضان المبارك من الأهمية بمكان حتى

أن الله تعالى أنزل الوحي في بيان أحكامه في القرآن الكريم. والأمر الذي يترل فيه الوحي القرآني يمكن أن يقدّر الإنسان أهميته وضرورته.

هذا المعنى ثابت من اللغة. يقولون: تكلمت معك في هذا الأمر. ونظيره في القرآن الكريم قول الله حكاية عن امرأة العزيز (فذلكُنَّ الذي لُمتُنّني فيه) (يوسف: ٣٣).. أي هذا هو الشخص الذي وجهتن اللوم إليّ بسببه. وكذلك ورد في الحديث (عُذِّبت امرأة في هرة حبستها) (البخاري، المساقاة).. أي أن الله عذب امرأة لأنها حبست قطة و لم تطعمها فهلكت.

والمعنى الثاني–أن بداية نزول القرآن الكريم كانت في شهر رمضان. والثابت من الحديث أن القرآن الكريم بدأ نزوله في رمضان. هناك اختلاف في تعيين التاريخ، ولكن المحدّثين عامة يرجحون يوم الرابع والعشرين من رمضان (ومنهم العلامة ابن حجر العسقلاني صاحب فتح الباري والإصابة، والعلامة الزرقاني صاحب شرح المواهب اللدنية وصاحب تفسير البحر المحيط).

والمعنى الثالث –هو أن كل القرآن نزل في رمضان، وقد ورد في الحديث رواية عن عائشة رضي الله عنها.. أن رسول ﷺ وهو في مرض الموت قال للسيدة فاطمة رضي الله عنها.. إن جبريل يعارضني بالقرآن كل سنة وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي (البخاري، فضائل القرآن).. أي أن جبريل في شهر رمضان من كل سنة كان يراجع معي ما يترل عليّ من القرآن، ولكنه في رمضان من هذه السنة ختم معي القرآن مرتين.. وأرى من ذلك أن أجلي قد اقترب.

ولا شك أن نزول القرآن كان يتم في شهور أخرى غير رمضان، ولكنه يتميز عليها بأن جبريل كان يقرأ مع النبي ﷺ ما نزل من القرآن الكريم حتى هذا الشهر، وكأن نزول القرآن على النبي كان يتم مرة أخرى في هذا الشهر في كل سنة.

وذُكر هذا الموضوع نفسه في رواية عن ابن عباس قال: (كان رسول الله أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن. فلَرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة) (البخاري، بدء الوحي).

يتأكد من هذه الراويات أن بداية نزول القرآن كانت في شهر رمضان، ثم في كل رمضان كان جبريل عليه السلام –يراجع مع النبي ﷺ ما نزل إلى ذلك الوقت منه، وبناء على ذلك يمكن القول بأن كل القرآن كان يترل في رمضان.. بل كانت بعض أجزائه قد نزلت عدة مرات، حتى يمكن لنا القول بأن الرسول ﷺ.. مضى عليه منذ مبعثه إلى وفاته ثلاثة وعشرون شهرا من رمضان.. وبالتالي نزلت عليه بعض أجزاء من القرآن الكريم ثلاثا وعشرين مرة وبعضها اثنتين وعشرين وبعضها إحدى وعشرين مرة وهكذا. أما الآيات التي نزلت في السنة الأخيرة من حياته الشريفة فقد نزلت مرتين، لأن جبريل راجع معه ﷺ القرآن مرتين فيها. والثابت من القرآن الكريم أن ما تفعله الملائكة إنما تفعله بأمر من الله (التحريم: ٧)، لذلك لا يمكن القول بأن ما كان يفعله جبريل ليس نزولا.. لأن الملائكة لا تترل إلا بأمر الله، وهذا هو الترول والإنزال في المصطلح الإسلامي. إذن فمن معاني (أنزل فيه القرآن) أن جميع القرآن نزل في رمضان.

ويجب أن نتذكر أيضا أن (رمضان) اسم إسلامي لهذا الشهر، أما اسمه في زمن الجاهلية فهو الناتق (فتح البيان، تحت هذا الآية).

وقوله تعالى (هدى للناس وبيّناتٍ من الهدى) هدًى وبينات حال، والمعنى أن هذا القرآن أولا سبب لهداية الناس، وثانيا أن فيه أدلة على الهدى.. لأنه لا يقول للناس: افعلوا ولا تفعلوا فقط، وإنما يسوق أحكامه مع الأدلة أيضا. وقوله 'للناس' يشير إلى أن هذا القرآن هداية للعالم أجمع وليس لبعض الناس. وكلمة 'الفرقان' تشير إلى أن فيه من الأدلة التي تميز بين الحق والباطل.

قوله تعالى (فمن شهد منكم الشهر فليصُمْه) أي أن من وفَّقه الله لأن يُدرك هذا الشهر المبارك –وهو ليس مسافرا أو مريضا –فعليه أن يصوم الشهر كله بدون انقطاع.. ويجمع له ما يكون سبب خير وبركة، ولا يضيع هذه الأيام المباركة في كسل وغفلة.

وقوله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) أي فرضنا عليكم صيام رمضان لأننا لا نرضى أن تؤمنوا ومع ذلك تعيشوا في عُسر. كيف قال ذلك مع أن

المؤمنين في أيام الصوم يشقون على أنفسهم أكثر فيما يبدو؟ الحقيقة أن هذه الآية تبين نكتة عظيمة.. ألا وهي أن تحمل الجوع في سبيل الله وتقديم التضحيات لدينه لا يضر الإنسان أبدا وإنما ينفعه تماما. فالذي يظن أن الإنسان يجوع في رمضان يكذّب القرآن الكريم، لأنه تعالى يقول: كنتم جياعا ففرضنا عليكم الصيام لتأكلوا. فتبين أن الطعام الحقيقي هو ما يطعمه الله، والحياة الحقيقية هي أن يضحي الإنسان لوجه الله تعالى، ثم يأكل ما تيسر له شاكرا ربه. وأما ما سواه من الطعام فيُهلك آكله روحانيا. فعلى المؤمن أن يفكر عند تناول كل لقمة.. لأجل من يأكلها؟ فإذا كان يتناولها لله تعالى فهي الطعام، وإذا كان يأكلها لنفسه فليست طعاما وإنما هي حجر يأكله. كذلك إذا لبس لوجه الله تعالى فهذا هو اللباس، أما إذا لبس لنفسه فهو عريان. فانظروا كيف بيّن الله -بأسلوب لطيف- أنكم ما لم تصبروا على الشدائد والمصائب لمرضاته لن تستمتعوا بالرفاهية واليسر حقيقة.

وهذه الآية تبطل عمل أولئك الذين يتخذون من رمضان ذريعة للأكل حتى يسمنوا، كما قال الإمام المهدي: إن رمضان عند بعض الناس بمثابة أيام الأكل والراحة. يكثرون فيه من أكل الحلوى والمشويات والمقليات فيخرجون منه سمانا كما يخرج الحصان من أيام راحته وأكله. هذه الأمور تحرم الإنسان من الكثير من بركات رمضان. كذلك يجب أن لا يكون هناك تكلف وتنوع في الإفطار والسحور، ولا يظنن الإنسان أنه ما دام قد جاع طوال النهار فليأْكلْ الآن كثيرا متنوعا. إن أصحاب الرسول ﷺ في زمنه لم يكونوا يتكلفون في إفطارهم وسحورهم، وإنما كانوا يرون الكفاية في الإفطار ببعض التمر أو الملح أو الماء أو الخبز. ومن واجبنا أيضا أن نتبع هذا الطريق ونحيي سنة الرسول ﷺ وصحابته مرة أخرى.

قوله تعالى (ولتكملوا العدة) ذكر المفسرون لهذه الجملة معنى كنتُ أبيّنه أنا أيضا، وهو أن الله ذكر هنا سبب فرض الصيام لشهر كامل، قائلا: إننا عيَّنا شهر رمضان للصيام لكي تكتمل عدة أيام الصوم. لو أنه فرض الصيام بدون تعيين لصام بعض الناس عشرة أيام مثلا، وصام بعضهم أقل من ذلك وصام آخرون الدهر. لذلك

فرض الله الصوم لشهر كامل كي يصوم المؤمنون كلهم أياما هي ضرورية لتكميل الروحانية.

هذا المعنى صحيح في محله، ولكن هناك أيضا معنى آخر.. هو أن الحياة الحقيقية للإنسان إنما هي ما ينقضي منها في الخير. أما ما ينقضي منها في كسب الدنيا فيضيع سدى. والله قد فرض الصيام لكي يكمل الإنسان عمره الحقيقي، لأن الذين يشتغلون في كسب الدنيا وحدها ليسوا أحياء، بل هم أموات بحسب المصطلح القرآني: (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى) (الإسراء: ٧٣). ولما كان لا مناص للإنسان من المأكل والمشرب لاستمرار حياته.. فلا يستطيع أن يصوم طوال السنة، ولذلك فرض الله صيام شهرٍ، وقال الحسنة بعشر أمثالها (الأنعام: ١٦١).. وهكذا جعل صيام شهر رمضان بمثابة صوم السنة كلها.. فكأن الذي صام هذا الشهر صام العام كله، وصارت حياته حياة حقيقية.

ثم قال (ولتكبروا الله على ما هداكم). من العجيب أن الله ذكر من قبل فضيلة صيام رمضان بقوله تعالى (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) هنا استخدم قوله (ولتكملوا العدة) إزاء كلمة (شهر) لبيان أنه لو لم يعين شهرا للصيام لاختلف الناس في قدر أيام الصيام فنقصوا أو زادوا.. وهكذا ما استطاعوا تحقيق الرقي الروحاني الذي يتحقق بصوم شهر كامل. ثم قال هنا: (ولتكبروا الله على ما هداكم) مقابل قوله (رمضان الذي أنزل فيه القرآن).. لبيان أننا لم نحدد لكم أي شهر آخر، لأنكم إذا تذكرتم أن نزول القرآن قد تم في رمضان يتولد في قلوبكم حماس خاص لفعل الخيرات، فكلما جاء شهر رمضان فكرتم أن هذا هو الشهر الذي مَنَّ الله علينا فيه منة عظيمة؛ إذ أنزل فيه كتابا عظيما مثل القرآن.. وبالتالي سوف تميل قلوبكم تلقائيا إلى أن تكبروا اسم الله.

ثم بقوله تعالى (ولتكبروا الله على ما هداكم) نبّه على أن هذه الأيام هي لتكبروا الله فيها شكرا على أنه هداكم، وليس لأن تشكو إليه شدة الجوع. بل عليكم أن تفكروا أن الله قد مَنَّ عليكم مِنّة عظيمة إذ أنزل عليكم نعمة الصيام. الحق أن الله قد وضح هنا ما هي وجهة نظر المؤمن. إنه كلما وجد فرصة للتضحية اعتبرها

فضلا من الله. والأمة التي تكون هذه وجهتها لا يمكن أن يهلكها أحد، بل لا بد أن تفوز وتنجح. وهي التي تحيا حقا. إن الذي يفكر أن ما أُلقي عليه من واجبات دينية هو فضل خاص من الله لا بد أن يكبِّر الله، والذي يشتغل في تكبير الله تعالى لا بد أن يكبّره الله. لقد أمرنا الله في القرآن الكريم أنكم (إذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها) (النساء: ٨٧).. فلا بد أن يعمل هو أيضا بهذا المبدأ، وإذا قدَّم له الإنسان هدية ردَّ عليه بأحسن منها. فالذي يكبّر الله فلا بد أن يكبره الله، ولكن بشرط ألا يكون هذا التكبير بكلمات الفم فحسب. إن التكبير الذي يسره سبحانه وتعالى هو أن يتحمل الإنسان في سبيله السب والضرب والرجم، ومع ذلك يكبّره ويشكره لأنه هيّأ له هذه الفرصة للتضحية. وكأن التكبير الحقيقي هو أنه كلما تعرض الإنسان للاضطهاد خضع لله قائلا: ما أكثر نعم الله عليّ! وكلما حلّت به مصيبة كبر الله وأثنى عليه. ومن كبر الله هكذا فلا بد أن يزيده الله فضلا ويهيئ أسبابا لرفع مكانته.. وإلا فإن التكبيرات من اللسان فقط لا تجديه نفعا.

وأما قوله تعالى (ولعلكم تشكرون) فجاء به إزاء قوله (فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر).. ليشير إلى أننا أعطيناكم هذه الرخصة لتكونوا شاكرين.. وتتحدثوا كيف أن الله قد هيّأ لنا هذه التسهيلات لنيل المدارج العليا.. وتبقى جباهكم ساجدة على عتبتي دائما، وتضيئوا صدوركم وقلوبكم بحبي.

فهنا ذكر الله ثلاثة أحكام، وذكر إزاءها ثلاث حِكم. والأحكام هي أولا – أن تصوموا شهرا، وثانيا –أن تصوموا في رمضان، وثالثا – أن للمرضى والمسافرين رخصة إكمال هذه العدة في أيام أخر.

والحِكم الثلاث إزاءها هي:

أولا –حكمةُ صيام شهر كامل.. وهي أننا حددنا عدد أيام الصوم حتى لا يختلف الناس، فلا تكتمل العدة التي هي ضرورية للرقي الروحاني. وثانيا –حكمة الصيام في رمضان.. وهي ألا يختلف الناس ويختار كل منهم شهرا خاصا به، فعيّنا رمضان للجميع لكي يتذكروا نزول القرآن في هذا الشهر، فيتحمسوا لذكر الله وعبادته أكثر. وثالثا–حكمة الترخيص لبعض المرضى والمسافرين بعدم الصوم، لكي تروا

هذه التسهيلات، فتميل قلوبكم إلى شكر الله أنه رعانا هذه الرعاية.. أنزل هذه الأوامر لصالحنا، ثم منحنا هذه التسهيلات أيضا.

ويشير قوله تعالى (لعلكم تشكرون) أيضا إلى أننا فرضنا صيام رمضان لكي تكونوا شاكرين. فعند كل تكبيرة تشكرون الله، لأنه وفّقكم لهذا التكبير، ثم تشكرونه على هذا التوفيق للشكر السابق، ثم تشكرون على هذا التوفيق للشكر اللاحق.. وهكذا تستمر سلسلة من حلقات الشكر لا تنتهي، فيبقى الإنسان ساجدا على عتبة الله في كل حين، ويصبح عبدا لا يترك باب سيده بحال من الأحوال.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٧)

شرح الكلمات:

أجيب-الإجابة العطاء من الله والطاعة من العبد (المفردات). فمعنى قوله (أجيب دعوة الداع إذا دعان) أنني أسمع دعاءه وأجازيه.

فليؤمنوا –آمن به: صدَّقه؛ اعترف بصفاته.

لعلَّكم-ذكر بعض المفسرين أن (لعل) من الله واجب (المفردات).. أي إذا وردت (لعل) في حق الله فهي بمعنى اليقين.

التفسير: يقول الله تعالى: يا أيها النبي، إذا سألك عني عبادي.. أي عشاقي، وقالوا: أين ربنا.. كما يسأل العاشق الولهان عن حبيبه، فقل لهم: لا تُراعوا فإنه قريب جدا، فإني لا أكسر قلوب عشاقي ولا أخيّبهم. والدليل على كوني قريبا منهم أني (أجيب دعوة الداع إذا دعان).. عندما يتوسل إليّ أحد في اضطراب ولوعة وحرقة، فإني أستجيب دعاءه وأقبله. لو كنت بعيدا عنه فكيف سمعت صوته الخافت وهو في السجود؟ لو كنت بعيدا عنه كيف وصل إلى سمعي ابتهاله وهو في خلوة يرفع أكفَّه؟ إن سماعي دعاءه واستجابتي له لدليل على أنني قريب منه.

وإلى نفس هذه الحقيقة أشار الله بقوله (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) (ق: ١٧)، ومعنى ذلك أنه ليس قريبا فقط، بل هو موجود داخل الإنسان. والظاهر أن الجالس بالقرب يسمع الصوت الخارج من الفم، أما الجالس في داخله فإنه يسمع ما يقوله قلبه. فكأن الله فسّر هنا معنى قربه.. وقال: قُربي يعني أنني أقرب إلى الإنسان من شريان حياته، وأسمع دعاء الداعي سواء ناداني بلسانه أو تمثّل النداء رغبة في قلبه.. لأنني شديد القرب منه، بل إنني في قلبه.

يقول البعض: إننا دعونا الله بكل اضطرار، ولكن لم تُستجب دعواتنا.. فكيف تصح هذه الآية؟

صحيح أن معنى 'الداعي' لغةً هو من يدعو، ولكن الداعي هنا يعني من يدعو الله تعالى متصفا بالصفات المذكورة هنا. فالمعنى أن الذين يدعونني للقائي، وينسون لأجلي كل شيء، يطلبون مني قربي ووصالي فقط.. فإنني أستجيب لدعائهم وأقربهم مني. لذلك قال (وإذا سألك عبادي عني).. أي أنهم يبحثون عني، ولا يبحثون عن الخبز أو الوظيفة. فالذي يسأل الله قُربَه ولا يستجاب دعاؤه فله حق الاعتراض، أما الآخرون فلا مجال لاعتراضهم.

كما أن أسلوب العبارة في الآية يتضمن معنى الاضطراب والقلق. هناك بعض المفاهيم لا يعبَّر عنها بالكلمات، وإنما هي مستورة في العبارة، وهذا هو الحال هنا. يقول الله، عندما يجري عبادي إليَّ باضطراب وعشق ووله.. ويتلهفون: أين ربنا؟ فقل لعبادي هؤلاء إنني لا أردّ دعاء هؤلاء الداعين أبدًا، بل أسمعه وأقبله. وقد ورد نفس هذا المعنى في قوله تبارك وتعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) (العنكبوت: ٧٠).. أي أن الذين يسعون جاهدين للقائنا.. فنقسمُ أننا لا بد أن نوفقهم لسلوك طرق تؤدي بهم إلينا. وهذا يبيّن أن الله مستعد ليدلّ كل إنسان، أيّا كان دينه وثقافته، على طرق قربه، ويستجيب لدعواته باليقين.. شريطة أن يبذل الإنسان الجهود لذلك. أما الأدعية الأخرى فإن الله يضع في الاعتبار مصالح الإنسان بصدد قبولها. فإذا كان ما يسأله الإنسان مهلكا وضارا به في علم الله فلا يعطيه ما سأل. وبعض الأحيان تكون الوظيفة الشاغرة واحدة، ويكون لها اثنان من

الطلاب، فلا بد أن توهب لمن هو أحق بها. وإذا كانت ضارة بمن يطلبها، فإن الله تعالى مع ذلك لا يعطي عبده المؤمن إياها. لأن الصديق لا يمكن أن يضر حبيبه، فكيف يمكن أن يعطيه إياها مع أنه يراها بمثابة النار لمن يحب. إذن فهناك عوائق في طريق قبول بعض الأدعية.

ولكن هناك مطلبا لا بأس بأن يطلبه الإنسان، ولا يحول دون سؤاله وقبوله حائل، وهو مطلب لا ينقُص إذا وُزِّع على الناس جميعا.. ألا وهو الله —جل شأنه. الأشياء الأخرى محدودة، وأحيانا تكون ضارة بالإنسان. كل شيء في الدنيا يمكن أن يكون فيه شر وسوء، مثلا يقول الله: (ويل للمصلين) (الماعون: ٥).. فهناك نوع من الصلاة تُهلك أصحابها. ولكن لا ويل لمن يسأل الله إيّاه. لم يحدث قط أن سأل أحد اللهَ إيّاه و لم يشرفه الله بلقائه مخافة أن يُهلِك السائلَ هذا اللقاءُ.. أو ينقص هذا من ذات الله تعالى ولا ينقص هذا من الله شيئا. يتنفس كل كائن في هذا الهواء ولا ينقص الهواء.. كذلك كل إنسان يستطيع لقاء الله تعالى ولا ينقص هذا من الله شيئا. كل الخلق يتمتع وينتفع بأشعة الشمس ولا يترتب على هذا نقص في أشعة الشمس، ويستمتع الناس بنور القمر ويجلسون فيه ساعات وساعات ولا ينقص هذا من القمر شيئا، وتبقى أنواره كما هي. والله تعالى أكمل موجود، ولا ينقص منه شيء لو لقيه الناس جميعا. يقول الله تعالى لعباده: حاولوا أن تسيروا إليّ.. وعندئذ ترون كيف تسرع خُطاكم في طريق يصل بكم إلي وتنالون قُربي. إنني لا تدركني الأبصار.. إلا أنكم سوف تنالونني وتحظون بوصالي.

الحقيقة أننا لو تدبرنا في الآية لوجدنا أنه ذكرت ثلاثة تغيرات لا بد منها لمن أراد رُقيّا روحانيا ووصالا بالله تعالى، وبدونها لا يمكن أن يتحقق هذا لأحد.

أولها— أن تتولد في قلب الإنسان رغبة صادقة للوصال بالله تعالى والتقرب إليه. ولكن الواضح أن مجرد الرغبة لا يمكن أن توصل الإنسان إلى الله عز وجل، بل الضروري أن يتيسر له هادٍ يأخذ بيده على طريق النجاح في هذا الهدف ويزيل مشاكله.

وثانيها– لقد اعترف الإسلام بأهمية هذا المقتضى الفطري، وقال: صحيح أن هؤلاء قد تولدت في قلوبهم رغبة للوصال بالله تعالى، ولكن يجب أن يحدث في قلوبهم تغير آخر.. هو أن يسألوك عن الله. فليتجهوا إلى نبيهم محمد ﷺ ويسألوه: أين يجدون حبيبهم الحقيقي؟ وكيف يهتدون إليه؟ فكما أن شفاء المريض يتطلب أن يعرف أنه مريض، ثم يسلِّم بضرورة ذهابه إلى الطبيب الحاذق.. كذلك يتطلب الوصول إلى الله أن تتولد رغبة صادقة في قلب الإنسان للوصال به عز وجل.. ولا يكفي هذا، بل عليه أن يتبع محمدا ﷺ لتحقيق هذه الرغبة، فهو الذي يوصله إلى الله تعالى.

والتغير الثالث الذي لا بد من حصوله في طالب القرب الإلهي هو ما تشير إليه هذه الآية: أن يسأل عني، وأن يكون هدفه الوصال بي فقط. الناس يدخلون في دين ما بأهداف مختلفة: فبعضهم يدخلون فيه لينخرطوا في سلك جماعة، وبعضهم يقبلونه للتحلى بأخلاق سامية، وبعضهم ينضمون إليه من أجل الاجتماع والحضارة. ولكن الله يقول: يجب أن يدخل الإنسان في دين صادق بهدف الاتصال بالله تعالى والتقرب إليه. ولا يكون وراء دخوله أي رغبة أخرى. نعم، إذا تحققت له منافع ضمنية أخرى فلا بأس، ولكن يجب أن يكون هدفه الحقيقي هو الوصال بالله تعالى.

ومن قواعد اللغة العربية أنه إذا جاءت الفاء بعد إذا فهي للعاقبة والنتيجة. فمعنى قوله (إذا سألك عبادي عني فإني قريب) أن هذه التغيّرات الثلاثة إذا اجتمعت في أحد.. أي إذا بدأ أحد يسأل عن الله تعالى، مدركا ضرورة الوصال به عز وجل، ثم جاءك ليسألك أنت، لا يسأل الفلاسفةَ والعلماء، ولا موسى ولا عيسى ولا غيرهما، بل جاءك أنت يسأل، أو يسأل القرآن الذي جئت به، أو يسأل خلفاءك، ولا يكون سؤاله عن شيء سواي.. بل يسأل عني وحدي.. فلا بد أن يجدني قريبا منه.. وأريه وجهي.

هناك سؤال يجب الرد عليه: لقد سبق أن قال الله في سورة (ق) وهي مكية (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) فما الداعي أن يقول في سورتنا هذه وهي مدنية، ومتأخرة نزولا(وإذا سألك عبادي عني فإني قريب) ؟ ما داموا قد عرفوا في سورة مكية أن الله تعالى قريب جدا.. فلماذا يسألون هذا السؤال؟ ولا حاجة لإنزال هذه

الآية. لو أن أحدا سأل النبي عن ذلك لأخبره بقول الله تعالى (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد). القرآن الكريم كلام الله تعالى، ولا يكون فيه شيء بدون ضرورة وداعٍ، فلا بد أن هناك حِكمة في ذكر الناس هذا السؤال والجواب عليه. ولا بد أن يكون لكلمة 'قريب' معنى خاص غير معناها العادي.

ولنتذكر هنا أن الله جعل فرقًا غريبًا بين الآيتين.. ذلك أن القرب والبعد أمر نسبي على الدوام. فهذا الشيء قريب مني وهو بعيد عن غيري. عندما نقول عن شيء إنه قريب فذلك من جهة، ولكن من جهة أخرى يعتبر نفس الشيء بعيدا. في سورة "ق"يقول الله (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه. ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) فهو أقرب بالنسبة لذلك الإنسان. وفي قوله تعالى (وإذا سألك عني عبادي فإني قريب) لم يذكر أي نسبة أو جهة، فهو قريب مطلقًا دون تحديد. وفي عدم التحديد هذا نكتة لطيفة جدا.. ذلك أن الإنسان يسأل ربه حاجات مختلفة في أوقات مختلفة، أحيانا يطلب منه ما يتعلق بالناس، وأحيانا ما يتعلق بالحيوانات، وأحيانا بالجمادات، وأحيانا ما يتعلق بالله، وأحيانا بالملائكة، وأحيانا بهذا العالم، وأحيانا بالآخرة. فحاجات الإنسان واسعة ولا يمكن أن تحدَّد. ولكن من فطرة الإنسان أنه عندما يطلب شيئا يبحث عن أقرب وسيلة للحصول عليه. وهذا القرب له جهات مختلفة، فمن القرب أن يجد بأسرع ما يمكن ذريعة تقربه من الغاية؛ ومن القرب أيضا أن يجد وسيلة تقربه من غايته في أقرب وقت ممكن. فهناك معان مختلفة للقرب ينظر إليها الإنسان، وإذا وجد في وسيلة كلَّ هذه المعاني للقُرب.. اختارها للحصول على غايته، وهذا ما يقول الله هنا (إذا سألك عبادي عني فإني قريب).. أي أن الإنسان يهدف إلى غايات مختلفة، وينظر إلى الوسائل المؤدية إليها، فيختار منها الأسرع، فإذا رأى بعد التفكير في وسائل مختلفة أخرى أن يدعو الله.. فقل له (إني قريب). لم يقل هنا "إني قريب إليه ".. لأن الله ليس قريبا من هذا الداعي وحده، بل إنه قريب من كل شيء.. وهو أقرب وسيلة للحصول على أي غاية. فكون الشيء قريبا من شيء أمر. ولكن تقريب أحد من هدفه فأمر آخر. لذلك يقول الله تعالى (إني قريب) أي قريب منكم، وأيضا قريب من غايتكم

التي تريدون تحقيقها. كأن هذه الآية لا تتحدث عن قرب مكاني، وإنما تبيّن أن كل أنواع القرب التي يحتاج إليها الإنسان للحصول على غايته موجودة في الله تعالى. مثلا يكون لنا صديق في الخارج محتاج للمال، ويكتب لنا طالبا المساعدة.. ولو أردنا إرسال المال إليه لاستغرق ذلك أياما، ولكن لو دعونا الله لأجله.. فمن الممكن أن يحقق الله له أمنيته ويهيئ له المال بمجرد خروج كلمات الدعاء من فمنا. يقول الله تعالى إذا أردتم المعونة فقولوا لي. والمثول بين يدي الله تعالى لا يحتاج من الإنسان تحريك يد أو رجل.. بل يستطيع أن يمثل أمامه بالقلب، لأنه يقول (إني قريب).

ثم إن الله ليس قريبا من الإنسان فقط، بل إنه قريب أيضا من غايته أيضا، وما أن يدعو ربه ليعطيه شيئا.. فإنه تعالى يخصصه له.. وإن كان هذا الشيء على بعد آلاف الأميال، لأنه كما كان قريبا من الداعي كذلك هو قريب من الشيء الذي دعاه لأجله. وهذه أكبر وأنفع الوسائل لتحقيق أي نجاح.

كما أن الله بقوله (إني قريب) وجّه الأنظار إلى موضوع آخر لطيف، وهو أنكم إذا لم تستطيعوا رؤيتي فلا تظنوا أني بعيد عنكم. بل إني قريب جدا منكم، ولنفس السبب لا تستطيعون رؤيتي.. إذا لا يستطيع الإنسان رؤية الأشياء البعيدة عنه جدا، كما لا يستطيع أيضا رؤية الأشياء القريبة جدا منه. لذلك لا يستطيع سماع الصوت الناشئ في باطنه. هناك صوت للضمير، ولكن آذانه لا تسمعه، لأن الآذان تسمع الصوت الصادر من بعيد. عندما نسمع صوتا فمعنى ذلك أن الهواء هو الذي حمل الصوت الخارج إلى الأذن. لقد خلق الله طبلة الأذن بحيث تتلقى الموجات الصوتية القادمة إليها من بعيد فتحدث فيها ذبذبات تنتقل إلى المخ فيترجمها إلى أصوات مفهومة. كذلك يتلقى المذياع الموجات وذبذباتها وتحولها صماماته إلى كلمات مسموعة. فالأذن بمثابة المذياع (جهاز استقبال) في الإنسان ، وأعصاب السمع بمثابة صماماته التي توصل الذبذبات إلى المخ فيترجمها في صورة كلمات.

فالصوت يعني الشيء القادم من الخارج، وعندما نسمع صوتا فذلك يعني أن شيئا جاءنا من الخارج.. لأننا إنما نسمع من الأصوات ما يأتينا من الخارج. أما

الأصوات الداخلية كصوت الغازات في الأمعاء فنسمعها لأن ذبذباتها تصل إلى الخارج وترتد إلى الأذن، وإلا فإن ما يحدث من أصوات في داخلنا لا نستطيع سماعه لأنه شديد القرب منا، فكما لا نستطيع رؤية شيء بعيد جدا، ولا نستطيع رؤية شيء قريب جدا.. كذلك لا نستطيع سماع صوت بعيد جدا أو قريب جدا. الذين لا يعرفون هذه الأمور سوف يتعجبون لها، ولكن هذا النظام جميعه قائم بالفعل على الحركة والموجة. ما تسمعونه هو حركات "ذبذبات" يترجمها المخ إلى أصوات، وما ترونه أيضا حركات "ذبذبات" تحولها العيون والمخ إلى صور. ما ترونه أمامكم ليس بصورة وإنما هي نقوش تصل إلى المخ عن طريق الأعين فتحولها إلى صورة. لذلك بدءوا بجهاز المذياع ينقلون الصور أيضا. وقاعدة هذه الحركات كلها، سواء كانت حركات الأذن أو العين، أن لها حدا أدنى وحدا أعلى. فالموجات الضوئية أو الصوتية التي تقع بين الحدين يمكن للعين أن تراها وللأذن أن تسمعها. أما ما فوق هذا الحد أو دون ذاك الحد فلا يُرى ولا يُسمع. هناك كثير من الأصوات التي تتولد في جو السماء نتيجة تصادم السحب أو الأجرام الفلكية، ولكنها شديدة جدًا لذلك لا نسمعها. وكما أن الآذن لا تسمع ترددات فوق طاقتها أو دونها كذلك لا تستطيع العين رؤية شيء فوق طاقة العين أو دونها.

أشار الله بقوله (إني قريب) إلى أن عدم رؤيتكم أو سماعكم لي ليس بسبب بعدي عنكم، فلست ببعيد عنكم، وإنما أنا قريب منكم قُربا شديدا لذلك لا تستطيعون رؤيتي ولا سماع صوتي.

وهنا سؤال: ما دام الإنسان لا يستطيع رؤية الله، فلماذا قيل هنا (وإذا سألك عني عبادي فإني قريب).. فالإنسان يسأل ويبحث عمن يستطيع رؤيته.

فلنتذكر أن السؤال يكون أحيانا عن شيء مبهم، كأن يكون أحد مسافرا في ظلمة الليل ويشعر بخطر فيقول: هل هناك أحد؟ ولا يعني ذلك أنه متأكد من وجود إنسان يراه بعينه، وإنما ينادي على افتراض أنه لو كان هناك أحد فليأت لنجدته.. حتى يزيل عنه وحشته وخوفه من الظلام. كذلك يقول الله هنا: إذا شعر أحد

بالوحدة في الدنيا، ورأى أنه بحاجة إلى نجدة، وناداني وهو لا يراني: إذا كان هناك إله فليأت لنجدتي؛ فقل لعبدي هذا: إني قريب منه ولست بعيدا عنه.

أحيانا لا يفكر في نجدة المستغيث ويقول: فليمُتْ، ولا حاجة لي لمساعدته. وأحيانا لا يقدر هذا القريب على مساعدة المظلوم ضد المعتدي،كأن يدخل أسد في قرية ويهاجم أحد سكانها، فيفرون بدلا من السعي لنجدته. ولكن لا يحدث هذا من الله. إذا نادى أحدٌ ربه وهو خائف لوجد الله هناك. يقول الله: إن عبدي هذا.. وإن كان نادى نداء مبهما، ولكنني أعتبر نداءه موجها إليّ، وأرى أنه يخاطبني أنا.. بغض النظر عن أن نداءه فيه إبهام وخيال.. لا أبالي بهذه التفاصيل، وإنما أُسرع لنجدته. لذلك إذا سأل عني فقل له: إني قريب ولست ببعيد. صحيح أن الناس لا يأتون أحيانا لنجدة المستجير وإن كانوا على مقربة منه. أو لا يستطيعون نجدته.. أمّا أنا فإنني مصمم على نجدته وقادر على مساعدته أيضا.

ويتبين من هذا أن الله لا يستجيب دعاء المسلمين فقط، بل إن أي إنسان.. سواء كان مسيحيا أو هندوسيا أو سيخيا أو آريا.. لو دعا الله وتوسل إليه في ضراعة وابتهال وبقلب صادق، واستغاثه بضعف حيلته، فلا بد أن يسمع الله دعاءه ويقبله. صحيح أن الله يستجيب لأدعية المسلمين الصادقين أكثر من الآخرين.. ولكن هذا لا يعني أنه سدَّ باب رحمته على الأمم والأفراد الآخرين. بل كل من يقرع بابه ويخر على عتبته فإنه يرحمه ويسد حاجته. إنه يقول بكلمات صريحة: (أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ).. كل من يناديني لنجدته فإنني أستجيب لندائه، ولا أرده من عندي خاوي الوفاض .

ثم يقول (فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي). ما دمتُ أسمع دعاءكم وأستجيب له.. يجب عليكم أن تقوموا بما يجعلني أستجيب دعاءَكم. ولا تظنوا أني أقبل كل دعاء، بل كل دعاء يخالف أحكامي ونظام الأخلاق لن أقبله. كيف يمكن أن أقبله وأهلِك رسولي؟ هل أقبله وأفسد نظام الأخلاق؟ إذا أردتم أن تستجاب دعواتكم فينبغي ألا يتعارض دعاؤكم مع نظامي وديني وأخلاقي.

يقال إن أحد العرب ذهب إلى الحج وأخذ يدعو الله دعاء فاسدا وهو واقف في الكعبة. فسمعته الشرطة واعتقلته. كان يدعو: يا إلهي، ليت حبيبتي تغضب على زوجها وتأتي إلي!! وكأنه–والعياذ بالله –يريد أن يشترك الله معه في هذه السيئة! كذلك قال أحد السارقين مرة: قبل خروجي للسرقة أصلي ركعتين حتى أستعين بالله وأنجح في سرقاتي!

هناك إعلانات تُنشر في الجرائد عموما عن أنواع التمائم والتعاويذ، ويقولون عنها إن من احتفظ بواحدة منه فبوسعه أن يدعو أي امرأة فتأتي إليه تلقائيا بتأثير التميمة! ويعلّلون ذلك بأن فلانا من أولياء الله هو الذي أعدّ هذه التعاويذ بما يعلمه من أسرار الكلام! هذا استهزاء وسخرية بالدين. إن الله سبحانه لا يشترك في ارتكاب المساوئ والسيئات كهذه؛ ومهما قال القائل فهذا خطأ.

فالله يقول: لا تظنوا من قولي (أجيب دعوة الداع إذا دعان) أنني أسمع كل دعاء. إنما أسمع الدعاء بشرطين: أولهما –أن يكون الداعي مستجيبا لندائي. وثانيهما –أن يستيقن بي ولا يسيء بي الظن. إذا كان الداعي لا يؤمن بقوتي وقدرتي.. فكيف يمكن أن أستجيب لدعائه؟ لقد عرَّف كلمة الداعي بـــ "الـــ" دلالةً على أنه داعٍ خاص.

ثم ذكر بعد ذلك شرطين يجب وجودهما في الداعي وهما: أن يكون نداءه بحسب ما وضعت من قواعد ومبادئ، فلا يكون الدعاء في حرام، ولا يتعارض مع الأخلاق ولا مع سنتي. لو دعا أحد: يا رب أحْيِ أخي الذي مات، فهذا دعاء يتعارض مع القرآن الكريم وتعاليم الرسول ﷺ. وما دام الداعي لم يعمل بالقرآن، و لم يقبل قول الرسول.. فلماذا يستجيب الله لدعائه هذا؟ هناك شرطان لقبولية الدعاء: (فليستجيبوا لي): أن يقبلوا ما أقول؛ (وليؤمنوا بي) ويوقنوا بي. والذي لا يستوفي هذين الشرطين ليس مؤمنا ولا يتبع أوامري، لذلك لا أعِدُه بقبول كل دعاء منه. صحيح، أنني أقبل أدعيته أيضا، ولكن بحسب هذا القانون لم أقبل كل دعاء له. أما الذي يتبع هذا القانون ثم يدعوني فأقبل كل دعاء له.

حكى سيدنا الإمام المهدي أن بعض التجار الهندوس كانوا جالسين يوما في السوق يقولون: هل هناك أحد تناول نصف رطل من حبات السمسم؟ رأوا أن أكل هذا القدر من السمسم أمر صعب! وأعلن أحدهم عن جائزة قدرها خمس روبيات لمن يفعل ذلك. ومر بهم فلاح قروي، فلما سمعهم لم يفهم الأمر وتحيّر، وحدَّث نفسه: أي صعوبة في تناول نصف رطل من السمسم حتى يضعوا له هذه الجائزة؟ لا بد أن هناك شرطا آخر أيضا. فتقدم وسأل: هل تشترطون أكل السمسم بقشره أم مقشورا؟! كان هذا الفلاح لا يرى أي صعوبة في أكل هذه الكمية من السمسم، أما هؤلاء فكانوا تجارا هندوسا لا يستطيع أحدهم أن يأكل أكثر من نصف رغيف. فقال التاجر صاحب الاقتراح للفلاح: يا سيدنا الفلاح، دعك من هذا، فنحن نتحدث عن الآدميين!

فعندما يقول الله تعالى (أجيب دعوة الداع إذا دعان) فإنه يخاطب الآدميين، ولا يخاطب الحيوانات. إنه لا يستجيب دعاء كل داع، وإنما يستجيب دعاء داع يشعر ويدرك أن عليه أيضا بعض الواجبات.. وليس على الله وحده. فمثلا لو دعا أحد أن يمكِّنه الله من خطف ابنة فلان، أو سلب مال فلان، أو هلاك عدوه فلان.. فإن الله تعالى لن يعتبر نفسه مخاطبا بمثل هذه الدعوات. فقوله (فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي) يعني أن من يتبعون أوامره، ويؤمنون بقدرته لا يسألونه بمثل هذه الأسئلة. هل كان النبي ﷺ وأصحابه يدعون الله بأن يعطيهم مال أحد ظلما؟ فالله يخاطب الناس ولا يخاطب الأنعام ولا يَعِدهم، وإنما يشترط أن يكون الداعي تابعا لأوامره تماما، وأن يكون مستيقنا بقدرته. فثقته هذه تستثير الله لقبول دعائه.

سئل ابن عباس رضي الله عنهما: من ذا الذي تدعو له أكثر؟ فقال: الذي يأتيني ويقول: ليس هناك من يدعو لي، فادْعُ لي. وما دام يعتمد عليّ ويثق فيّ رغم عدم معرفته بي، فلماذا لا أثق به؟ كذلك يقول الله: من يثق فيَّ ويعمل حسب مشيئتي.. أستجيب لدعائه. ولكن الذي لا يثق بي ولا يعمل بأوامري فلا أستجيب لدعواته. وإلى ذلك يشير حديث الرسول ﷺ: (لا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ. قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ يَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ

وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ (مسلم، كتاب الذكر والدعاء). فيستلزم قبول الدعاء أن يكون الداعي مؤمنا واثقا تمام الإيمان والثقة بالله تعالى، ولا يَدَعُ اليأس يقترب منه.

ثم يقول (لعلهم يرشدون): والرشد يعني أن يعرف الإنسان الطريق الصحيح (الأقرب). فالمراد من قوله (لعلهم يرشدون) أنهم نتيجة لذلك سوف يعرفون الطريق الذي يؤدي بهم إلى الفلاح والنجاح يقينا. وكلمة "لعل" تُستخدم عموما للرجاء والأمل، ولكنها لم تَرِد هنا بهذا المعنى، وإنما بمعنى اليقين.. كأسلوب كلام الملوك والحكام الذين عادة يقولون: لو قدمت الطلب فربما ندرس الأمر. ومثل هذه الكلمات لا تدل على الرجاء والاحتمال، ولكنها في الحقيقة تعني اليقين واللزوم. أي أننا سوف نحقق ما تريد. ويقول اللغويون أيضا إن "لعل" إذا استخدمها الله في كلامه فهي بمعنى الوجوب واليقين (المفردات).

فقوله تعالى (لعلهم يرشدون) يعني: من قبل كنت أنا آتيهم لنجدتهم، ولكنهم عندما ينالون هذا المقام سوف يتمكنون بأنفسهم من الوصول إلي.

كان أشار بقوله (إني قريب) إلى أنني أتيهم، أما بقوله (لعلهم يرشدون) فبيّن أن العبد يترقى بالتدريج حتى يتخذَ لونا من صفات الله تعالى. في البداية كان كالأعمى يجلس صديقُه بجواره، أما بعد نوال هذا المقام فيصبح بصيرًا يجلس بقرب حبيبه. وإلى هذا المقام أشار النبي ﷺ في قوله: "تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك" (البخاري، الإيمان). ورؤية الله تعالى إنما تعني أنه صار قريبا من العبد.. وإلا فإنه يراه من العرش أيضا. فالمعنى أن الله يقترب من العبد في البداية حتى أنه يستيقن بأن الله يراه.. ثم يرتقى العبد ويحوز مقاما يشعر فيه أنه هو يرى الله تعالى.. وهكذا يصل إلى أسمى درجات الروحانية.

ولما كانت هذه الآيات تتحدث عن الصيام.. فإن الله تعالى قد وجّه فيها أنظار المؤمنين إلى أنه يستجيب عموما لدعوات عباده ويسد حاجاتهم، ولكن أيام رمضان أيام استجابة الدعاء على وجه الخصوص، فعليكم بالانتفاع من هذه الفرصة والتقرب إلى الله، أما إذا خرجتم من شهر رمضان أيضا أصفار الأيدي فلن يبقى

شك في شقاوتكم. كل عمل في الدنيا مرهون بوقته، وإذا لم يُنجز في موعده فلن يأتي بنفس النتائج الجيدة التي تتحقق لو تم في موعده.

هناك موسم خاص لزرع الغلال والخضار، وإذا لم يُراع هذا الموعد فلا ينبت منها شيء. ولكن هذا لا يعني أن هذا الموعد بمثابة السحر والتميمة.. أي له تأثير خاص يتمم العمل، وإنما المراد أنه حينما تتيسر الأسباب لنجاح عمل فهو الموعد لإنجازه. إذا كان لنمو حبات القمح وقت خاص فلا يعني ذلك أن شيئا خاصا يحدث في البذرة عند ذلك الوقت، وإنما يعني أن الأسباب اللازمة لنموه تتهيأ عندئذ. ولو تيسرت تلك الأسباب في موعد آخر لنبت القمح في ذلك الموعد أيضا. إذن هناك موعد تتيسر فيه الأسباب لإنجاز جميع الأعمال. وكذلك للدعاء موعد محدد، وإذا تم الدعاء فيه أتى بنتائج رائعة. قال النبي ﷺ: "اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب" (البخاري، المظالم).. ذلك أن المظلوم يرى نفسه محاصرا بين المصائب ولا يجد من ينصره.. فيتجه كلية إلى الله ويخر على عتبته، وكل دعاء يدعوه يستجاب.. لأن من أفضل أسباب استجابة الدعاء أن ينقطع فكر الإنسان عن أي جهة أخرى إلى الله وحده. فقبولية الدعاء لها أوقات ومواسم. لكنها لا تتحدد بالأسباب الظاهرة، وإنما لها علاقة لما يطرأ على قلب الإنسان من أحول وكيفيات خاصة، لا يعرفها إلا من طرأت عليه مثلها.

بيد أن هناك موسما خاصا لاستجابة الدعاء لا يحتاج الإنسان بمعرفته إلى معرفة كيفيات قلبية خاصة.. وهو موسم شهر رمضان.. لقد جاءت هذه الآية في سياق الصيام مما يعني أن لها علاقة خاصة عميقة بالصيام، ومعناها: أنه كما أن فكر المظلوم ينقطع عن أي شيء ويرتكز ويتجه إلى الله فقط، كذلك يرتكز اهتمام المسلمين في شهر الصيام على الله تعالى. والقاعدة أنه إذا تم ضغط وتضييق شيء منبسط فإنه يكتسب قوة كبيرة.. مثل النهر الذي إذا ضاق مجراه زادت سرعة جريانه. كذلك في شهر الصيام يتهيأ العديد من دواعي استجابة الدعاء حيث ينهض عدد كبير من المسلمين للعبادة وقت الليل، ويستيقظون لتناول السحور، فيجد كل واحد فرصة طويلة أو قصيرة للعبادة. في ذلك الوقت تصل دعوات

آلاف العابدين المضطرين المكروبين إلى عرش الرحمان، ولا يمكن أن يردها.. بل يقبلها، لأن الدعاء الذي يخرج في حالة الكرب والألم يستجاب على كل حال. كما حدث لقوم يونس إذ استجاب الله دعاءهم الذي قاموا به معًا في ضراعة وكرب وألم، فغفر لهم، وصرف عنهم عذابه (يونس: ٩٩).

فهناك علاقة عميقة لاستجابة الدعاء بشهر الصيام. إنه الشهر الذي وعد الله لمن يدعو فيه (إني قريب). وإذا لم يجده العباد وهو قريب.. فمتى يجدونه؟ عندما يتمسك العبد بربه بكل قوة، ويُثبت بعمله أنه لن يترك بابه إلى باب آخر، فالله يفتح عليه أبواب فضله وتلتقط آذانُ العبد صوت (إني قريب). ولا يعني ذلك إلا أن يكون الله معه في كل حين. عندما يصل العبد إلى هذا المقام فليدرك أنه قد وجد الله.

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون (١٨٨)

شرح الكلمات:

الرفث: كلام يتضمن ما يُستقبح ذكره من أمور الجماع ودواعيه، وجُعل كناية عن الجماع (المفردات).

اللباس- اللباس أصلا هو الستر، أي ما يستر ويخفي ويغطي، ولكن القرآن بيّن له معاني أخرى. ففي سورة الأعراف ذكر فائدتين للباس (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا) (الأعراف: ٢٧) فكأن اللباس سترٌ للعورة وزينة

للمرء. ثم ذكر فائدة أخرى فقال (وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم) (النحل: ٨٢). فاللباس أيضا للوقاية من ضرر الحر والبرد والبأس.

تختانون – افتعال من خان يخون. يقال اختانه اختيانا: أُؤتمن فلم ينصح. وخان العهد: نقضه (الأقرب).

عفا–عفا عنه، وله، وعن ذنبه: صفح عنه وترك عقوبته وهو يستحقها، وأعرض عن مؤاخذته. عفا الله عن فلان: محا ذنوبه. وقد يُستعمل دعاء عفا الله عنكم فيما لم يسبَق ذنب ولا يُتصور منه ارتكاب الذنب (الأقرب).

باشِروهن– باشر الأمر: تولاه بنفسه. وباشره النعيم: أفاض عليه حتى كأنه مسَّ بشرته (الأقرب). المباشرة: الإفضاء بالبشرتين وَكُنِّيَ به عن الجماع (المفردات).

عاكفون– الاعتكاف الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم (المفردات).

التفسير: يقول الله إنه يجوز لكم أن تعاملوا زوجاتكم في ليالي الصيام بدون تكلف، لأنهن لباس لكم وأنتم لباس لهن.

وكما سبق ذكره، فإننا نعرف من القرآن ثلاثة منافع للباس: ستر العورة والزينة والوقاية من الحر والبرد، ومن الحرب باستخدام الدروع. فبقوله تعالى (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) بيّن كيف ينبغي أن تكون العلاقات بين الزوجين. قال: يجب أن يكون الزوجان كاللباس لبعضهما البعض دائما. أي أولا –أن يستر كل واحد عيوب الآخر. ثانيا –أن يكون زينة له. وثالثا –أن يكون عونا للآخر في ساعات العسر وسببَ سكينة وطمأنينة في حزنه وقلقه. فكما أن اللباس يحفظ الجسم ويحميه من تأثيرات الحر والبرد والحرب.. كذلك يجب أن يكون كل واحد من الزوجين محافظا على الآخر. انظروا إلى نموذج السيدة خديجة رضي الله عنها.. كيف أنها بعد زواجها من النبي ﷺ قدمت إليه كل مالها على الفور حتى لا يعاني أي صعوبة من قلة المال. وليستمر في أعمال خدمة الخلق بكل طمأنينة وسكينة. ما أعظمه وأروعه من نموذج قدمته لتحسين الحياة الزوجية وتوطيدها.

قوله (عَلِم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) يعني أن الله يعرف جيدا أنكم كنتم تتلفون حقوق أنفسكم ولا تؤدونها، فالآن قد تفضل عليكم وأصلح حالكم.

الحقيقة أن الله أشار بذلك إلى ما كان الصحابة يكنونه من حب وعشق للعبادة وذكر الله. فلما رأوا بركات رمضان، وأن الله يترل من السماء إلى الأرض في هذه الأيام المباركة ويمطر على عباده أنواره وبركاته.. أرادوا أن يبيتوا ليالي رمضان في ذكر الله وعبادته وأن يترفعوا عن العلاقات الجنسية. كما فرضوا على أنفسهم قيودا لا داعي لها فيما يتعلق بالطعام والشراب. فقد ورد في الحديث عن البراء أنه – قبل نزول هذه الآية – كان إذا نام أحد من الصحابة وقت الإفطار لم يتناول شيئا طوال الليل ولا في السحور حتى يحل مساء اليوم القادم. ومرة كان أحد الأنصار صائمًا، فلما حضر الإفطارُ أتى امرأته فقال: أعندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلقُ وأطلب لك. وحيث إنه كان يعمل طوال يومه، فقد غلبته عينه فجاءت امرأته فلما رأته قالت: خيبة لك، فلما انتصف النهار غُشِيَ عليه. فذُكر ذلك للنبي ﷺ فنـــزلت هذه الآية (أحل لكم ليلة الصيام .... وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) (البخاري، الصوم).

الواقع أن هذه القيود التي فرضها المسلمون على أنفسهم كانت نتيجة لبعض التقاليد اليهودية. فاليهود إذا صاموا يوم الكفارة صاموا من الصبح إلى الصبح التالي (الموسوعة اليهودية، ج٥،كلمة Fasts Private). وتقليدا لليهود ظن المسلمين أيضا أن الإنسان إذا نام فلا يجوز له بعد ذلك أكل شيء، وكذلك لا يجوز للمتزوجين ممارسة علاقاتهم الزوجية خلال رمضان. لقد ظنوا أنه كما يحظر الطعام يحظر عليهم العلاقات الجنسية. يقول الله: لا نفع ولا داعيَّ لهذه المشقة وإنما ينفع الإنسان ويباركه أن يتقيد بما فرضه الله عليه، ولا داعي أن يفرض الإنسان على نفسه قيودًا من عنده، فهذا غير سليم.

قوله (فتاب عليكم وعفا عنكم): أي رحمكم ومنَّ عليكم بهذا التيسير، فوجب عليكم الشكر لله تعالى. والقيام بأعمال الخير بمزيد من الشوق والنشاط.

يتبين من ذلك أن عباد الله المؤمنين عندما يتحملون المشاق ابتغاء مرضاة الله فإن رحمته تجيش وتفور وتهيئ لهم السهولة بشكل أو آخر. وكأن الله يجازيهم على إخلاصهم يدًا بيد.

قوله (فالآن باشِروهن وابتغوا ما كتب الله لكم). هناك فرق بين كتب عليه وكتب له. كتب عليه أي فرض عليه، كتب له أي عيَّن له حقّا أو جائزة، وتعني مجازا قدّر له وقضى، فالمعنى: ابتغوا ما جعله الله لكم حقا، وافعلوا ما لم يحرمه الله عليكم بل أجازه لكم، ولا داعي لتركه. أو ابتغوا ما قدّره الله لكم من أولاد، واتبعوا السبيل الذي قرّره لكم للحصول عليهم.

وأيضا يعني قوله (وابتغوا ما كتب الله لكم): اسعوا جاهدين في طلب ما قدّره لكم من بركات في هذا الشهر. إن عادتكم السابقة المتسببة في ضياع حقوقكم كان الممكن أن تُلحق بأجسامكم ضررا يمنعكم من تحمل المشقة وبذل المجهود، ولكن الله قد تدارك هذا الأمر وحمى أجسامكم من مشقة لا داعي لها. فمن واجبكم أن تشمروا وتسعوا لنيل رضوان الله تعالى، وتبحثوا عن تلك الدرجات العالية التي قدرها الله لكم في رمضان.

قوله تعالى (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) يعني كلوا واشربوا إلى أن يتضح خيط الصبح من خيط الظلام جليّا.

يتبين من الحديث الشريف أنه عندما نزلت هذه الآية كان بعض الصحابة يحتفظون بخيط أبيض وخيط أسود ظنًا منهم أن لهم أن يأكلوا ويشربوا إلى أن يستطيعوا التمييز بين الخيطين، فقد ورد أن عدِيًا جاء مرة إلى النبي ﷺ وقال له: "يا رسول الله، جَعَلْتُ تَحْتَ وِسَادِي عِقَالَيْنِ، أعرف الليل من النهار، فقَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: إِنَّ وِسَادَكَ إِذًا لَعَرِيضٌ أَنْ كَانَ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ تَحْتَ وِسَادَتِكَ، إنما هو سواد الليل وبياض النهار"(البخاري، الصيام). كذلك كان هنا آخرون منهم يحتفظون بالخيط الأبيض والأسود، وكانوا لا ينفكون يأكلون

ويشربون حتى يظهر لأعينهم الفرق بين الخيطين.. إلى أن أنزل الله كلمة (من الفجر)، فأدركوا أن ليس المراد خيطين ماديين، وإنما المراد أن يتضح الفرق بين الصبح الصادق والصبح الكاذب. وفي بلدنا البنجاب هناك بعض الفلاحين الذين يحتفظون بالخيطين الأبيض والأسود، ولما كان الإنسان لا يرى الخيط إلا في ضوء كافٍ لذلك يستمرون في الأكل والشرب إلى أن يسطع ضوء النهار، ولما كان منهم من هو مصاب بضعف البصر فمن الممكن أن يستدل بعضهم من ذلك على جواز الأكل والشرب حتى بعد طلوع الشمس حين يتمكنون من التمييز بين الخيطين.

فهذا التعبير على سبيل المجاز، وإنما المراد ألا تتركوا الأكل والشرب بناء على الوهم وتقولوا لعل الصبح قد طلع، بل لكم أن تأكلوا حتى يتبين الفرق بين الفجر الصادق والفجر الكاذب.

وفي قوله (ثم أتموا الصيام إلى الليل) لا يعني الليل الظلمة الشديدة، وإنما المراد هو غروب الشمس. فقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: "لا يزال الناس بخير ما عجّلوا الفطر " (مسلم، الصيام).. أي ما دام الناس يبادرون إلى الإفطار بمجرد غروب الشمس فسيبقون بخير.. أي تبقى فيهم الروح الحقيقية للأحكام الإسلامية الصحيحة، أما إذا وقعوا في اتباع التقاليد والأوهام فإنهم يغفلون عن الفرائض، وتدفعهم أوهامهم إلى دوار يتخبطون فيه إلى ما طائل منه.. ويشبهون في ذلك شخصا ينوي الصلاة، فيمد يده ليمس كتف الإمام ويقول: نويت أن أصلي خلف هذا الإمام؟ ثم بالتدرج يتقدم إلى أن يدفع الإمام دفعا ويقول: وراء هذا الإمام أصلي! هؤلاء الذين يصبحون فريسة للأوهام ينتظرون أولا مغيب الشمس، ولكن ما داموا يرون الشفق الأحمر في السماء فإنهم لا يطمئنون.. وينتظرون وقتا أطول حتى تخيم الظلمة الشديدة فيفطرون. هذا الطريق مخالف للشرع. يقول الله تعالى (أتموا الصيام إلى الليل ووقت الليل يبدأ من مغيب الشمس، فلا يعني ذلك أن تنتظروا إلى الظلمة الشديدة كي تفطروا).

وقوله (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد). هناك اختلاف في الرأي عما إذا كان هذا النهي عن جماع النساء بسبب الاعتكاف أم لحرمة المساجد. (التفسير الكبير، الرازي). أرى أن هذا النهي ليس بسبب الاعتكاف، وإنما لحرمة المساجد. ويشير إلى ذلك قوله تعالى (وأنتم عاكفون في المساجد).

ولْنتذكر أن المباشرة تعني أيضا مجرد اللمس. والثابت من الحديث أن السيدة عائشة –رضي الله عنها–كانت تغسل رأس النبي ﷺ، وتمشط شعره وهو معتكف في المسجد (البخاري، الصوم). فالنهي هنا إنما هو عن العلاقات الخاصة بين الزوجين أو ما يؤدي إلى ذلك، وليس مجرد اللمس.

قوله (تلك حدود الله فلا تقربوها).. أي لا تقربوا هذه الحدود حتى لا تزلّ قدمكم إلى محارم الله. وقد نبه النبي ﷺ إلى ذلك صحابته فقال: الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ. أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ". (البخاري، الإيمان) فمحارم الله هي حماه، فإذا اقترب منها الإنسان تعرض لخطر الوقوع فيها وارتكاب المحرمات التي توجب غضب الله. فالتقوى الحقيقية أن يتجنب الإنسان الاقتراب من حدود الله حتى لا يُزلّ الشيطان قدمه.

(كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون).. المراد من آيات الله أوامرُه. يقول إن الغرض الحقيقي من أوامر الله هو أن تتولد التقوى فيكم، فيجب أن تضعوا دائما التقوى نصب أعينكم.. فلا تتعدوا حدود الله فحسب.. بل تتجنبوا الشبهات مخافة الزلل والابتعاد عن التقوى.

ولا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٩)

شرح الكلمات:

تأكلوا –أكل: تناول الغذاء والطعام، ولكن إذا استخدمت كلمة الأكل لغير الطعام فتعني أفنَى الشيء وأهلكه.

تُدلوا –أدلى إدلاء: أرسل الدلو في البئر. أدلى فلان في فلان: قال فيه قبيحا.

وأدلى بحجته: أحضرها واحتج بها. وأدلى إليه بمال: دفعه إليه (الأقرب). وقوله (وتُدلوا بها) يعني ولا تدلوا بها. والمراد أولا لا تأخذوا أموال الناس إلى الحكام، أي لا تسلبوهم أموالهم بإقامة القضايا الكاذبة ضدهم. وثانيا: لا تعطوا الحكام الرشاوى.

التفسير: الإنسان لا يسلب مال نفسه، فالمراد لا تأكلوا أموال بعضكم عن طريق الباطل. الإنسان يأكل مال غيره بعدة طرق: أولا بالكذب، ثانيا: بسلبها عن طريق غير شرعي، ثالثا: عن طريق الربا، رابعا: الرشاوى. كل هذه الأمور تندرج تحت كلمة (الباطل).

وبقوله (تدلوا بها إلى الحكام) بيّن أنه كما هو حرام أكل مال بعضكم البعض، كذلك لا تُغروا الحكام بالمال لتأكلوا به أموال الآخرين، فالآية تنهى عن تقديم الرشوة للمسؤولين وتحرمها.

والمعنى الثاني: لا تأخذوا أموالكم إلى الحكام لتأكلوا أموال الآخرين بالإثم.. أي لا تقيموا ضدهم قضايا باطلة ظنًّا أن الحاكم أو القاضي إذا حكم لكم بهذا المال بناء على قانون البلد يجوز لكم أن تأخذوه. كلا، فهناك محكمة سماوية فوق المحاكم الدنيوية، وما دامت هذه المحكمة السماوية قد حرمت عليكم بقانونها مثلَ هذا المال.. فمهما قضت المحاكم الدنيوية لكم به فهو حرام غير جائز لكم. وقد قال

النبي ﷺ: "فمن قطعتُ له من حق أخيه شيء فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار" (البخاري، الأحكام). كذلك روي عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها أن الرسول ﷺ سمع خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال: "إنما أنا بشر يأتيني الخصم، ولعل بعضكم أبلغ من بعض، فأحسب أنه صادق فأقضي له بذلك. فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو يتركها ". (البخاري، الأحكام،ومسلم، الأقضية).

يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٩٠)

شرح الكلمات:

الأهِلَّة–جمع هلال، قيل يسمى هلال لليلتين أو ثلاث أو إلى سبع (الأقرب).

المواقيت –جمع ميقات، وهو الوقت، وقيل الوقت المضروب للشيء، والموعد الذي جعل له وقت. وقد يستعار للموضع الذي جعل وقتا للشيء (الأقرب).

التفسير: لما رأى الصحابة أن الله تعالى يتقرب منهم في رمضان ويستجيب لدعائهم بكثرة.. اشتاقت قلوبهم لسؤال النبي ﷺ عن باقي الشهور، ليتمتعوا ببركاتها أيضا. فيقول الله: إنهم يسألونك عن الأهلة، فقل لهم: هي مواقيت للناس، أي هي وسيلة ليعرف الناس بها الوقت. بمعنى أن الشهور القمرية لم تتحد بدورة القمر لأن لكل منها علاقة بأمر من أمور الشرع، إنما ارتبطت بالقمر ليعرف الناس موعد أمر أو عمل في المستقبل أو في الماضي، وأشار بقوله (للناس) إلى أن عامة الناس يمكن أن ينتفعوا بالشهور القمرية، أما الحساب الذي يتأسس على دوران الشمس فإنما ينتفع به أهل العلم دون العامة.

وقال (والحجِّ).. أي هناك فائدة أخرى للشهور القمرية إذ لها علاقة بالحج، فبما أن فريضة الحج تؤدّى في شهر قمري معين، وفي كل مرة يتغير موعده فهذا يمكّن ذوي الطبائع والبلاد المختلفة حارة أو باردة.. أن يشتركوا في هذه العبادة بحسب طبائعهم وأحوالهم. ولو فُرض أداء الحج في شهر شمسي لتقيدت هذه العبادة بشهر واحد من السنة ولاسْتَحال على العديد من الناس أداؤه، ولكن ربط عبادة الحج بشهر قمري يجعل موسمه يحل في مختلف فصول السنة مما يتيح للناس السفر إلى بيت الله حسب أحوالهم ليتمتعوا من بركات الحج.

ويجب ألا يُظن من قوله (قل هي مواقيت للناس) أن الإسلام يعتبر أن القمر وحده وسيلة لتحديد الوقت، لأن القرآن الكريم ذكر في آيات أخرى أن الشمس أيضا وسيلة لمعرفة الوقت وتقديره، فقال: (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدّره منازلَ لتعلموا عددَ السنينَ والحسابَ)(يونس:٦). ومعنى (ضياء) أن ضوءها ذاتي غير مكتسب، ومعنى (نورا) أن القمر يكتسب ضوءه من الشمس. وقال أيضا: (فالِقُ الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا. ذلك تقدير العزيز العليم) (الإنعام: ٩٧).. فذكر بقوله (حسبانا) أن الشمس والقمر وسيلتان للحساب. وقال: (الشمس والقمر بحسبان) (الرحمان: ٦). أي أن الشمس والقمر يعملان وفق حساب ونظام، وحركتهما تابعة لقانون معين. ثم قال (والنجم والشجر يسجدان) (الرحمان: ٧). ونتيجة لهذا القانون المحدد فإن نبات الأرض وأشجارها تتبع دورة الشمس والقمر في نموها وإثمارها، وتتأثر بتأثيراتها.

يتبين من هذه الآيات أن للشمس والقمر علاقة بالتواريخ والحساب ولولاهما لم تظهر هذه العلوم، ولم يمكن تقدير السنين والأيام.. ذلك لأن تقدير الشيء ومعرفة المسافة بين شيئين يتطلب وجود نقطة ثابتة. فمثلا رجال المساحة عندما يقيسون المسافة فيقولون إن الأرض الفلانية تبعد كذا مترا عن بئر كذا أو شجرة كذا.

فمعرفة المسافة غير ممكنة بدون نقطة لبداية القياس. لذلك نقول لولا الشمس والقمر ما استطاع الناس قياس السنين والأيام.

وقد ربط الإسلام مواقيت عبادته بكل من الشمس والقمر. فمثلا ربط بالشمس مواعيد الصلاة وبداية الصوم ونهايته. ولكن العبادات التي ترتبط بشهر خاص فهي تابعة للقمر، فاختار الشهور القمرية لرمضان وأيام الحج لكي تمضي هاتان العبادتان برحلة على مدار السنة، فيجد كل مؤمن شرفا وسعادة أن الله تعالى مكَّنه من عبادته في كل جزء من السنة. فصيام رمضان ترتبط مواقيته بالشهور القمرية، ويُكمل رحلته على مدار السنين في ثلاث وثلاثين سنة، وهكذا يهل رمضان أحيانا في يناير أو في فبراير أو سائر شهور السنة الشمسية.. ليرجع مرة أخرى إلى يناير بعد ٣٣ سنة، وهكذا يكون المؤمن قد صام في كل يوم من أيام السنة وهي ٣٦٥. ولكن لو كان الصيام مرتبطا بالسنة الشمسية، وكان في شهر يناير مثلا لجاء كل عام في نفس الشهر، ولم تتسع هذه العبادة. فلتوسيع رقعة عبادة الصوم، ولكي يستطيع كل الإنسان قضاء كل لحظة من السنة في عبادة الله رُبطت بشهر قمري. ولكن فيما يتعلق ببداية السنة ونهايتها فإن العقل الإنساني يطمئن إلى الشمس أكثر.

(وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها). يقال إن العرب في الجاهلية كانوا إذا أحرم أحدهم للحج ثم مسته الحاجة لدخول بيت لم يدخله من الباب. وإنما تسلق الجدار من الخلف ودخله (البخاري، التفسير).

وقد يكون نزول هذه الآية نهيا عن هذا الأمر، ولكنني أرى أنه لم يسبق الآية ذِكر دخول البيوت من ظهورها.. فلا تعني هذا المعنى الظاهري، وإنما المراد منها أنه لإنجاز أي عمل هناك أسلوب محدد فاختاروه واتبعوه وإلا لن تفلحوا في مرامكم. كان السؤال من قبل أننا تحملنا المشقة في رمضان وتقربنا إلى الله، والآن دُلّنا على طرق إذا اتبعناها في شهور أخرى تَمكَّنا من قمع النفس. فقال الله: صحيح أن نيتكم سليمة وطيبة، ولكن تَذَكروا أن الإنسان لا يصل إلى الله بتحمل المشقة الزائدة، وإنما الوسيلة الحقيقية للرقي الروحاني هي اتباع طرق عيَّنها الله لذلك. فإذا فعلتم هذا تمتعتم بقرب الله، وإذا لم تفعلوه فمثلكم كمثل خادم يدعوه سيده فيتأخر، وإذا سأله: لماذا تأخرت؟ يجيب: لم آت من الباب وإنما تسلقت الجدار،

وهذا ما أخرني! فهل تظنون أن سيده يفرح بجوابه ويجازيه ويرفع مكانته، ويقول له: لقد أرهقت نفسك في تسلق الجدار لأجلي.. لذلك أرفع مكانتك؟

فليس من البر أن يتكبد الإنسان المشقة عبثا، ويبتدع طرقا تضيع وقته وتبدد قواه، وإنما البر أن يلبي نداء الله ويختار الطرق التي حددها له في الشرع. لو حاولتم الوصول إليَّ بالطرق التي بينتها لكم فسوف تصلون إليَّ، أما إذا سلكتم سبلا أخرى فسوف تبذلون جهودا أكثر، وتتحملون مشقة أكبر، ومع ذلك لن تصلوا إليّ. فبعض الهندوس يعلّقون أنفسهم من الأقدام لمدة طويلة، وبعضهم يرفعون أيديهم حتى تجف. ولكن هذا لا يكسبهم رضوان الله تعالى. وعلى النقيض يقوم المسلمون بعبادات تقل مشقة عن أفعال الهندوس كثيرا، ومع ذلك يفوزون برضوان الله.

وللأسف أن المسلمين في زمن الفَيْج الأعوج أيضا حمّلوا أنفسهم مشقات شديدة، وسلكوا طرقا خاطئة، واخترعوا من عند أنفسهم أنواع الاعتكافات، وابتدعوا عشرات الأذكار، ولو أنهم –بدلا من تحمل المشقة الشديدة– عملوا بما أمر الله به في القرآن من تعاليم.. لقطعوا من منازل القرب الإلهي في أيام ما لم يستطيعوا قطعها في سنين. لقد مات نتيجة لهذه المشقات الكثير منهم بأمراض كالسُّلّ والحمى، وأصيب العديد بالجنون والصرع.

وبين الله في قوله (وأتوا البيوت من أبوابها) أن الإنسان إنما ينال الفلاح والنجاح بالدخول من الأبواب. وإن لم تفعلوا ذلك وتسلقتم الجدران فلن تفلحوا أبدا. فمثلا في أيام الحرب.. لو لم تتدربوا على استخدام السلاح، ولم تتعلموا فنون القتال، وخرجتم للقاء العدو متهورين طائشين فلن تفوزوا، ولكن لو كان بيدك سلاح، ولو بسيط، أو تعلمت استخدام العصا لنفعت القوم، فلا بد إذن للنجاح من أخذ الأسباب واتباع الطرق التي حددها الله لذلك.

ثم يقول (واتقوا الله) ليشير إلى أن التساهل في أخذ الذرائع والأسباب يُعتبر انتهاكا لقانون الله ونظامه، فاتقوا الله واتبعوا فقط الطرق التي وضعها الله لنيْل أي شيء،

ولا تتبعوا طرقًا جديدة من عند أنفسكم. مثلا، الصوم في الشهر الصيام حسنة عظيمة، لكن لو قاس الإنسان على ذلك، وبدأ يصوم في شهر آخر ثلاثين يوما، وظن أنه سوف يُرضي ربه بهذا.. فمثله كمثل الذي لا يدخل من الباب، بل يتسلق الجدار، ويقول انظروا: كيف تحمَّلتُ المشاق لوصولي إليك! لن يمدح الناس مثل هذا الإنسان وإنما يلومونه ويذمون ما فعل.

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩١).

التفسير: من هنا بدأ الله بيان تعليمه فيما يتعلق بالحروب الدينية. فذكر في هذه الآية وحدها كل الشروط التي تجب مراعاتها في هذه الحروب. وقال أيها المسلمون، قاتلوا الذين يقاتلونكم من الكفار، ولكن بنيّة الجهاد في سبيل الله، وبدون أدنى شائبة للغضب من الهوى من أنفسكم، وتذكّروا ألا ترتكبوا أي عمل فيه ظلم أو تعدٍّ، لأن الله لا يحب الظالمين بأي حال.

لقد تبين من هذه الآية أن الحرب التي أُمر المسلمون بخوضها إنما هي تلك التي تكون في سبيل الله، فلا يحاربون لمطامع النفس أو لغصب البلاد، أو لبسط النفوذ.. وإنما تكون حربهم لوجه الله تعالى، أي لإزالة العراقيل التي توضع في سبيل الله أو في وجه دينه. إذا لم تكن حربا دينية فلا يمكن أن تسمّى في سبيل الله.

وقد انخدع الكتاب المسيحيون بكلمة (في سبيل الله)، وظنوا أنها تعني إكراه غير المسلمين على قبول الإسلام. ولكن هذا خطأ تماما. وإنما المعنى أنه يجوز من الحروب فقط ما يكون وفق مشيئة الله وابتغاء مرضاته. وقد وردت هذه الكلمة أيضا في الآية ٢٦٣ من هذه السورة (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله)، فقد فُسرت كلمة (في سبيل الله) في الآية ٢٦٦ (ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله).

وكذلك ورد: كل ما أمر الله به من الخير فهو في سبيل الله.. أي من الطرق إلى الله (لسان العرب).

وقيل: وسبيل الله عامٌّ يقع على كل عمل خالص سُلك به طريق التقرب إلى الله تعالى بأداء الفرائض والنوافل وأنواع التطوعات (النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة سُبل).

فلا يعني قوله تعالى (وقاتِلوا في سبيل الله) أن اجعلوا الآخرين مسلمين بالجبر والإكراه، وإنما معناه أنه إذا قاتلكم قوم بسبب دينكم، وحاولوا فصلكم عن عقائدكم بالجبر، فمن واجبكم أن تحاربوا العدو فقط ابتغاء مرضاة الله، ولإزالة المشاكل التي قامت في وجوهكم بسبب اتباعكم دينكم.. فليس هناك أي ذِكر لإكراه أحد على الإسلام، وإنما الأمر هنا بإزالة الجبر والإكراه الذي يفرضه الكفار ليسلبوا المسلمين حريتهم الدينية.

والشرط الثاني هو أن يحارب المسلمون فقط قوما حملوا السلاح في وجههم أولا، فقال (الذين يقاتلونكم).

والشرط الثالث أيضا يستنبط من قوله تعالى (يقاتلونكم) أي يجوز لكم قتال من يقاتلونكم، ولا تقتلوا من ليس مقاتلا في جيوش الكفار فعلا.. مثل الصغار والعجائز والنساء. وكأنه استثنى من دائرة الحرب كل المدنيين.

لقد شرح سيدنا محمد المصطفى ﷺ هذا الأمر الإلهي بتعاليمه التي كان يوجهها إلى أمراء الجيوش عندما كان يرسلهم للقاء العدو. فقد ورد أن النبي ﷺ عندما كان يؤمِّر أحدا على جيش فإنه ينصحه ومن معه بقوله: "اتقوا الله واغزوا باسم الله في سبيل الله، وقاتِلوا من كفر بالله" ولا يعني ذلك أن تقاتلوا كل كافر وإنما معناه أنه إذا أسلم من يحاربكم فلا تقاتلوه.. وإنما يُسمح لكم بقتال من يظل كافرًا مقاتلاً لكم.

لو أن أحدا بدأكم بالحرب ثم أسلم قبل لقائكم فلا تقاتلوه وكفّوا عنه. ثم قال: "اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ".. أي لا تخلفوا عهودكم ولا تخدعوا، إذا وعدتم العدو بشيء فلا تخلفوه لأي عذر (ولا تمثّلوا)...لو اتبع الكفار عادتهم في التمثيل بالقتلى فقطعوا الآذن أو جدعوا الأنوف فلا تفعلوا مثلهم بقتالهم. ثم قال: (ولا تقتلوا وليدا).. أي الصغار قبل البلوغ، لأنهم لا يشتركون في الحرب)(مسلم، الجهاد). وهناك نصائح أخرى للنبي ﷺ وردت في (السيرة الحلبية)، فقد جاء فيها أن الرسول ﷺ كان يوجّه من يخرجون للقاء العدو: "لا تقتلوا امرأة ولا شيخا فانيا، ولا معتزلا في صومعة".. أي نهى عن قتل المعتزلين في المعابد وإن كانوا من قوم عدو، لأنهم في عزلتهم يتعبدون "ولا تقربوا نخلا".. أي لا تحاولوا قطعها لأن هذا يؤثر على أرزاق الناس. إنكم إنما خرجتم لدفع هجومهم وليس لتدمير مستقبلهم. ثم قال: "ولا تقطعوا شجرا ". لأن هذا يضر المسافرين والفقراء والعامة. لقد خرجتم لمحاربة العدو المقاتل وليس لحرمان القوم حتى من الظل. ثم قال: " ولا تهدموا بناء ".. إن هدم القلاع أمر مختلف لأن هدفها إضعاف المقاتلين، ولكن لا يجوز هدم الديار وإحراقها وإخراج الناس من مساكنهم.

وهناك توجيهات نبوية أخرى، منها ألا يُفزعوا الناس. إن جيوش الدول الدنيوية عندما تدخل بلدا فإنها ترتكب المظالم وتضطهد الناس بلا هوادة، لكي يبثوا الرعب في النفوس، ولكن الإسلام لا يسمح بهذا، كذلك أمر النبي ﷺ أنكم إذا دخلتم بلدا فلا تأمروا بما يشق على الناس، بل بما فيه راحتهم (السيرة الحلبية). وقال إذا تحركت جيوشكم فلا يعرقلوا طرق المسافرين. قال أحد الصحابة إن جيش المسلمين خرج ذات مرة فصعب على الناس مغادرة بيوتهم والسير في طرقهم، فأمر النبي ﷺ مناديا لينادي بأن من أغلق على الناس بيوتهم أو سد طريقهم فليس قتاله جهادا.

فحسب تعاليم الإسلام لا يجوز للمسلمين أن يقتلوا النسوة أو الصبية أو العجائز، أو يخلفوا الوعد، أو يغدروا بالعدو، أو يمثلوا بجثث القتلى، أو يتعرضوا للقساوسة

والرهبان والكهان، أو يدمروا بستانا، أو يقطعوا شجرا، أو يهدموا بناء أو يحرقوا عمارة، ولقد سخط النبي ﷺ أشد السخط على من يخالف تعاليمه هذه.

كانت النسوة حسب عادات العرب يشتركن في الحرب، يقاتلن ويَقتلن، فكان لا بد من قتْلهن، ولكن في إحدى المرات رأى النبي ﷺ بعد الحرب جثة امرأة فبدت على وجهه الكريم أثار الغضب والحزن الشديد وأنكر ذلك (مسلم، الجهاد والسير).

وفي غزوة أحد أخرج النبي ﷺ سيفه وقال: سأعطيه من يؤديه حقه. فقام كثيرون لتناوله، ولكن الرسول ناوله لأبي دجانة الأنصاري، وأثناء المعركة هاجمه عدد من المكيين الكفار، وكان أحدهم أشدهم حماسة في القتال فأسرع إليه أبو دجانة مُشهرا سيفه ثم انصرف عنه. وسأله أحد الصحابة بعد ذلك: لماذا تركت هذا المقاتل؟ فقال: عندما هجمت عليه لقتله صدر منه كلام عرفت به أنه امرأة. فقال صاحبه: لكنها كانت تحارب المسلمين على أي حال وتشترك مع جنود الكفار، فلماذا تركتها؟ فقال أبو دجانة: (أكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة) (مسلم، الفضائل، المغازي للواقدي، السيرة لابن هشام، غزوة أحد).

كان النبي يأمر دائما باحترام النسوة مما شجع الكافرات على الإكثار من إلحاق الضرر بالمسلمين، ولكنهم تحملوهن رغم ذلك. هناك امرأة شاركت في حروب الكفار كلها ضد المسلمين منذ البداية واشتهرت بالتمثيل بجثث شهداء المسلمين، هي هند زوجة أبي سفيان وهي الوحيدة التي أمر الرسول ﷺ بقتلها عند فتح مكة، ولكنها اختفت في مجموعة من النسوة وبايعت النبي وأسلمت، فلم يعاقبها النبي ﷺ وقال: إن توبتها قد محت ذنوبها (السيرة الحلبية، فتح مكة).

والشرط الرابع هو (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين). حتى وإن كان العدو هو البادئ بالقتال.. فالتزموا بقتال المقاتلين ولا توسعوا نطاق الحرب لا من حيث المناطق، ولا من حيث وسائل القتال. وبيَّن السبب وقال (إن الله لا يحب

المعتدين).. أو بعبارة أخرى: إن الذين يتعدون الحدود لا يمكن أن ينالوا حب الله. الحق أن مثل هذا المعتدي لا يمكن أن يحب الله طبعا، لأنه يتجاوز الحد في المطالبة بحقه، فمثلا لو أن شخصا غضب ولطم غيره فهذا ولا شك خطأ يجب أن يعاقَب عليه. ويكون العقاب بأن نؤنبه ونلومه: لماذا لطمت فلانا؟ ولكن هناك طبائع لا تكتفي بمثل هذا اللوم ولا ترضى حتى تقطع المعتدي إرْبا إرْبا، وربما لا تكتفي بهذا، بل تريد أن يُلقي به الله في نار جهنم في الآخرة ويعذبه عذابا لا يعذبه أحدا! ولكن الله رحيم كريم لا يحب الذين يتجاوزون الحدود ولا يحبونه سبحانه وتعالى.

هناك قوى عظمى في هذا الزمن تدعي بأنها تراعي منتهى العدل والإنصاف في المعاملات، ولكنها في الحرب تلجأ إلى كل صنوف الكذب والظلم والخداع والغدر. وما لم تمزق عدوها وتسحقه لا تخمد نيران قلوبها. وأحيانا يستخدمون الغازات السامة لإهلاك عدوهم، وأحيانا يضعون أسرى العدو أمامهم وقاية، وأحيانا يموهون باستخدام زي جنود العدو وشعاراته في الهجوم، وأحيانا يخرقون عهود الصلح والهدنة. كل هذه أمور محرمة ومخالفة لتعاليم الإسلام.

يُستنبط من الآيتين السابقتين هذه الأمور الستة:

أولا – أن العمل الجائز يصبح حراما إذا اتبع الإنسان طرقا غير شرعية لإنجازه فقال: من حقكم أن تدخلوا بيوتكم متى شئتم، ولكنكم لو دخلتموها بتسلق الجدران، فهذا ليس من البر، ولا يعتبر حسنة عند الله. بضرب هذا المثال بيّن الله أنه قد وضع لكل عمل طريقا، فإذا أنجز الإنسان العمل باتباع هذا الطريق اعتُبر عمله حسنة وبِرًا. أما إذا كان العمل صالحا وكان الطريق لإنجازه غير شرعي لم يُعتبر صالحا. فمثلا أداء الصلاة عمل صالح. ولكن لو صلى الإنسان بدون وضوء، أو صلى أولا ثم توضأ، أو صلى في غير وقتها.. فإنه وإن أدى عبادة الله إلا أنه لا يمكن أن يرضي الله بها، وإنما يعتبر مرتكبا سيئة.

ونفس الحال بالنسبة للتعبير عن الغضب. إن إظهار الغيرة حسن عند الله، فهو أيضا غيور، ويغضب على السيئات، ولكن لو عبّر أحد عن غيرته في محلها بطريقة خاطئة، فإن غيرته وغضبه بهذه الطريقة سوف تُعتبر إثما، لأنه ما اختار الطريق الصحيح للتعبير عنها. لقد بين الشرع أن من أساليب التعبير عن الغيرة والغضب أن يترك المؤمن المكان الذي يستهزأ فيه بآيات الله مثلا. فلو لم يترك المؤمن المكان وشرع يتقاتل معهم، اعتُبر آثما أمام الشريعة.

ثانيا- أن الحسنة اسم للتقوى.. أي القيام بالعمل الحسن بطريق حسن. فمن واجب المؤمن أن يدخل البيت من بابه، أي ينجز كل عمل صالح بالطريق الذي حدده الله لإنجازه، والذي لا ينجز العمل بهذا الطريق لا يعتبر بارًا صالحا.

ثالثا- إن اتباع الطريق الذي وضعه الله لإنجاز العمل يُرضي الله، فضلا عن أن في اتباعه نجاح الإنسان وفلاحه في عمله.. فقال (لعلكم تفلحون) أي أننا لم نأمركم بهذه الأوامر عبثا، بل رقيكم ونجاحكم منوط باتباعها. وتوقُّف النجاح في عمل على اتباع الطرق الصحيحة لأمرٌ واضح. ولو أراد الإنسان الدخول في بناية، ودخلها بالطريق المجهز لذلك فسوف يدخلها بسهولة وبدون أذى، ولكنه لو ترك هذا الطريق وتسلق الجدران فسوف يعاني مشقة وأذى. كما يشتهر بين الناس بالغباء.

رابعا-أن الشريعة الإسلامية ترى الهجوم على أحد بظلم خروجا عليها. تقول الآية (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم).. أي يجوز أن تدافعوا عن أنفسكم لو هاجمكم أحد للقضاء عليكم، ولكن لا يجوز أن تكونوا البادئين في الهجوم.

خامسا-أنه يجوز لكم الدفاع ما دام داخل الحدود التي حددها الله. أي أن الإنسان ليس حُرًّا في الدفاع أيضا. بل عليه أن يلتزم عندئذ ببعض القيود والشرائط، وإذا تجاوزها وقت الدفاع فعمله حرام وغير جائز. فمثلا لو لطم أحد غيره لطمة، فلا يجوز للمعتدي عليه أن يشجَّ رأسه عقابا على لطمه.

سادسا–أنه عند الانتقام.. لو تجاوز أحد المظلومين هذه الحدود التي عيَّنها الله، فمع كونه مظلوما سوف يسقط من نظر الله. يقول تعالى (إن الله لا يحب المعتدين).. أي إذا اعتديتم في الدفاع والانتقام وتجاهلتم الحدود التي وضعها الله فسوف تُحرَمون من حب الله تعالى وتفقدون نصرته.

وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ(١٩٢)فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٣)

شرح الكلمات:

الفتنة –العذاب؛ الابتلاء؛ اختلاف الناس في الآراء؛ وما يقع بينهم من قتال (الأقرب).

التفسير: يقول أعداء الإسلام إن هذه الآية تعلّم المسلمين أن يقتلوا الكافر حيثما وجدوه. ولكن الأمر ليس كذلك أبدا، وإنما يندرج من الكفار تحت قوله تعالى (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) مَن ذُكروا من قبل، والذين هم بادئون بالعمليات الحربية ضد المسلمين. وليس هناك أي اعتراض أخلاقي أو شرعي في المضي في محاربة هؤلاء. لقد وجه النظر بقوله (حيث ثقفتموهم) إلى وجوب محاربتهم في مكان المعركة الذي يصطدمون بكم فيه، وليس أن تقتلوا كل كافر تجدونه هنا وهناك. يجب أن يكون القتال مع جيش الكفار، سواء كانوا هم القوة التي بدأتكم بالقتال، أو قوة أخرى ملحقة بهم وتساعدهم.

(وأخْرِجوهم من حيث أخرجوكم) هذه الكلمات تتضمن نبأ بأنه سيأتي زمن ينال فيه المسلمون من القوة ما يستطيعون به الدخول إلى المكان الذي اضطُروا للخروج

منه مع النبي ﷺ.. ويعودون إليه غالبين فاتحين بأمر من الله تعالى. المسلمون عرضة الآن لاضطهاد الكفار، ولكن سيأتي وقت يتوسل فيه الكفار إلى المسلمين ويسترحمونهم. وقد أُشير إلى هذه الغلبة والفتح في قول الله (براءةٌ من الله ورسولِه إلى الذين عاهدتم من المشركين)(التوبة: ١).. أي كان مشركو مكة يقولون إن محمدا يدعي بأنه النبي المبعوث في مكة مصداقا للنبأ الإبراهيمي، ولكن ها هو قد هاجر من مكة إلى المدينة، فكيف يمكن اعتباره مصداقا لهذا النبأ حقًّا؟ يرد الله عليهم: ها قد مَكَّنتُ محمدا من فتح المناطق العربية الأخرى، لأنه بدون ذلك لا يمكن أن يدخل في مكة: وها إني قد دحضتُ حجتكم هذه، وبرأته وأصحابه من هذا الطعن. ثم قال (فسيحوا في الأرض أربعَة أشهر، واعلموا أنكم غيرُ معجزي الله) (التوبة: ٢).. يمكن أن تنطلقوا في أنحاء الجزيرة العربية في رحلة لمدة أربعة أشهر، وتروا وتعرفوا أنكم لا تستطيعون أن تعجزوا الله. أي أنكم سوف تعرفون بهذا السفر أن الإسلام قد تغلّب على بلاد العرب، وثبت بطلان مطاعنكم.

فقوله هنا (أخرجوهم من حيث أخرجوكم) إنما هو نبأ بهذه الغلبة التي تمت فيما بعد، وأمر الله به المسلمين أنهم كما أخرجوكم من هذه البلاد ظلما وعدوانا كذلك عليكم أن تقضوا على حكمهم فيها. فـــ(أخرجوهم) لا يعني الطرد الظاهري، وإنما يعني القضاء على حكمهم وتصرفهم، لأن الرسول ﷺ لم يُخرج مشركي مكة منها، وإنما سمح بنفسه لأولادهم بالإقامة فيها. كان أبو جهل أكبر المشركين وأعداء الإسلام، وعند فتح مكة فَكَّر ابنه عكرمة في الفرار إلى الحبشة وخرج من مكة، ولكن زوجته استأذنت واستأمنت النبي له، فعاش في مكة حرا (السيرة النبوية لابن هشام، فتح مكة). وهكذا شرح الرسول بعمله معنى (أخرِجوهم) وبيّن أنه لا يعني إكراه الكفار على الخروج من بيوتهم، وإنما يعني القضاء على سلطانهم ونفوذهم، أو يعني-على الأكثر –طرد الأشرار منهم الذين يحيكون المؤامرات ضد المسلمين ، وكل حكومة في الدنيا تطردهم ولا ترى في ذلك بأسا.

ويقول (والفتنة أشد من القتل) أي أن إيقاع أحد في الفتنة بسبب دينه أشد وأكبر إثما من القتل والحروب، فلا تفعلوه أبدا لأنه دأب الكفار. والمراد من الفتنة هنا فترة الابتلاء التي كان المسلمون يمرون بها، والتي ذُكرت من قبل بأن الكفار –بدون مبرر، وبسبب الاختلاف العقائدي فقط –يضربون المسلمين ويخرجونهم من ديارهم. يقول الله إن إيذاء قوم وإخراجهم لاختلاف في الدين أخطر وأهول من الحروب السياسة الأخرى التي تنشب على حقوق قومية؛ لأنه لا وزن للدنيا أمام الدين. والفتنة هنا أيضا تعني تعذيب المؤمنين لصرفهم عن دينهم، فقال إن تعذيب المؤمنين هكذا أشد من قتل نفس. ذلك أن النفس أيضا لا أهمية لها إزاء الدين، وأيضا لأن هذه المظالم تؤدي إلى فساد كبير في الأرض، وتسلب الحرية العقلية، وتولد البغض والعناد في القلوب. فقال إنَّ قتل المسلمين لهؤلاء الظالمين ليس ظلما، لأن القتال صار جائزا للمسلمين بعد أن بدأ هؤلاء بالقتال، ولا يزالون يتدخلون في حرية المسلمين الدينية ويعذبونهم بسبب اختلافهم في العقيدة.

كما أن قوله (والفتنة أشد من القتل) يشير إلى أن القتل عمل شنيع بلا شك، ولكن بثّ الفتنة أشنع وأسوأ من ذلك، لأن الفتنة في بعض الأحيان تؤدي إلى إزهاق الآلاف بل الملايين من الأرواح. إن القتل يؤدي إلى إزهاق نفسٍ أو بضع نفوس، ولكن قد تدفع كلمة من فم فتّان الأممَ إلى حروب تقع آلاف الأرواح ضحية لها، وتؤدي بالجماعات إلى الفرقة والشقاق. إن أصحاب الفتنة يزعمون أنهم قالوا كلمات بسيطة، ولكن كلماتهم هذه في الحقيقة سمٌّ له تأثير بعيد. صحيح أن الفتنة تبدو في بادئ الأمر عملا هيّنا ولكن عاقبتها وخيمة خطيرة. ولقد نهى الإسلام عن القتل، ولكنه نهى عن الفتنة نهيا أشد.

وللأسف أن الناس عموما يسعون لتجنب جريمة القتل، ولكنهم لا يسعون لاجتناب الفتنة.. مع أنهم ما لم يدركوا أن الفتنة أشد من القتل وأشنع.. لا يمكن أن يستتب الأمن في العالم.

ثم يقول (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه) لأن ذلك سوف يعرقل قيام الناس بالعمرة والحج. (فإن قاتلوكم فاقتلوهم). نعم، إذا بدءوا الحرب في المسجد الحرام فأنتم مضطرون لرد هجومهم. (كذلك جزاء الكافرين) أي أن الذين يرفضون تعاليم مبنية على المنطق والعدل يستحقون هذا الجزاء وهذه المعاملة.

وهنا نصح الله المسلمين ألا يحولوا بين الناس وبين أدائهم طقوسَهم وفرائضهم الدينية. وما لم يبدأ العدو قتالكم في مكان يعطِّل القتالُ فيه عبادةَ الناس فلا تحاربوهم فيه. لكن إذا اتخذ العدو مِن هذه الأماكن ميدانا للحرب فقتاله فيه يُعد أمرا اضطراريا. وهكذا نبّه إلى ضرورة تجنب القتال حول أماكن العبادة، دعْك من الهجوم على المعابد أو هدمها. ولكن لو اتُّخِذت هذه المعابد قلاعا للحرب وبدأ العدوان منها.. فإن مسئولية إلحاق ضرر بها تقع على المعتدي.

قوله (فإن انتهوْا فإن الله غفور رحيم).. أي لو عاد العدو إلى صوابه وارتدع عن عدوانه فإن الله غفور رحيم.. أي لو بدأ العدو القتال من أماكن عبادته، ثم تنبّه إلى النتائج الخطيرة لعدوانه، وخرج من معابده إلى مكان آخر لحربكم، فلا تلحقوا الضرر بمعابده بحجة أنه بدأ القتال منها فتهدموها. كلاّ، بل يجب على الفور أن تتجهوا إلى حربه حيث اتجه، واحفظوا لهذه الأماكن المقدسة احترامها وحرمتها.

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ(١٩٤)

التفسير: يقول الله: ما دام الكفار هم الذين بدءوا القتال فامضوا في قتالهم إلى أن يرتدعوا عن التدخل في الدين، ويعترفوا أن أمر الدين في يد الله وحده، ولا يحق للإنسان الجبر فيه. فإذا كَفّوا عن التدخل في دين الآخرين، فكفوا أنتم أيضا عن حربهم فورا إذ لا يجوز لكم محاربتهم عندئذ، لأن العقوبة إنما تنزل بالظالمين.

يجب ملاحظة أن الله تعالى قال في الآية السابقة (والفتنة أشد من القتل)، وعَّرف الفتنة بـــ "الـــ" التعريف. وهنا قال فتنةً بدون تعريف.. ذلك أنه في الآية السابقة

أشار إلى فتنة الكفار، وقارن بينها وبين القتال نفسه. لذلك جعل الفتنة معرفة بـــ"الـــ". وهنا لم يكن أية مقارنة لذلك استخدم الكلمة نكرة دليلا على عِظمها. والمعنى: عليكم أن تستمروا في الحرب حتى تزول هذه الفتنة الكبيرة.

ويرى البعض أن المعنى هنا: إلى أن لا يبقى الكفر (القرطبي). ولكن هذا خطأ، فليست الفتنة هنا بمعنى الكفر، وإنما بمعنى التدخل في دين الآخرين.. كما ذُكر في قوله تعالى (أذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أُخرِجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدِّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيرا)(الحج: ٤٠-٤١). أي أن المسلمين وهم قد ظُلموا وبدأهم العدو بالقتال.. مأذون لهم بالقتال.. والله قادر على نصرتهم ولا شك. هؤلاء المسلمون الذين أُخرجوا من ديارهم، ولا جريمة لهم إلا قولهم ربنا الله. ولولا أن الله يدفع الظالمين بيد غيرهم لهدموا أماكن العبادة التي يذكر فيها اسم الله كثيرا. فلتوطيد الحرية الدينية في العالم يأذن الله بالحرب للذين أُعلنت عليهم الحرب من قبل أعدائهم الظالمين.

فالله بيّن أنه يجوز لكم الاستمرار في الحرب فقط إلى زمن بقاء الفتنة، أي ما دام الناس يتدخلون في حرية الدين، ولكن إذا تغير الحال، وانتهى تدخلهم هذا، وتركوا أمر الدين لضمائر الناس، فلا يجوز لكم الحرب إلا أن تدافعوا عن أنفسكم. ونرى أن الصحابة الكرام فهموا نفس المعنى من هذه الآية. فقد ورد أن شخصا جاء إلى عبد الله بن عمر أيام الحرب بين عليّ ومعاوية رضي الله عنهم، وقال: لماذا لا تشترك في هذه الحرب في صف علي.. مع أن القرآن يقول (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة). فقال (فعلنا على عهد رسول الله ﷺ وكان الإسلام قليلا، فكان الرجل يُفتَن في دينه: إما قتلوه وإما يعذبوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة) (البخاري، التفسير).

يتضح من ذلك جليا أن المراد من قوله (حتى لا تكون فتنة) عند الصحابة أيضا ألا يتدخل الناس في دين الآخرين بالجبر والإكراه، فلا يقتلون ولا يعذبون أحدا

لاعتناقه دينا آخر. وإلا، فما معنى قوله تعالى (فإن انتهوا)؟ فهذه العبارة تخالف المعنى الذي ذهب إليه العلماء الآخرون وتؤيد ما ذهبنا إليه.

وقوله (ويكون الدين لله) يؤيد أيضا تفسيرنا، ويبين أن المراد أن يكون أمر إنزال العقاب على اختيار دين أو رفضه في يد الله، ولا يكون هناك خوف من أحد. أي يكون الإنسان حرا في اختيار الدين الذي يريد، فإذا أراد الناس أن يدخلوا في الإسلام فليدخلوا بدون خوف من أحد.

فمن الخطأ أن يقال بأن هذه الآية تعلم الجبر في الدين أو تعني الاستمرار في قتال المشركين إلى أن يدخلوا في الإسلام وينمحي الشرك والكفر. ولو كان كما يظن هؤلاء لما تصالح النبي ﷺ مع المشركين في معاهداته.

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٥)

شرح الكلمات:

الحرام-الممنوع منه (المفردات).

اعتدوا عليه-من قواعد العربية أنهم يستخدمون الفعل كجزاء على فعل سابق، فقد قال صاحب المفردات: "(من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليم) أي قابلوه بحسب اعتدائه، وتجاوَزوا إليه بمثل ما تجاوزه". وقد تناولنا هذا البحث عند تفسير قوله تعالى (الله يستهزئ بهم) (البقرة: ١٦). وهنا أيضا جاءت للجزاء كلمة الجريمة نفسها. وليس المعنى أن يعتدوا على الآخرين وإنما أن يعاقبوهم على جريمة عدوانهم.

التفسير: يقول الله: إذا لم يقاتلكم الكفار في الأشهر الحرم مراعين حرمتها. وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرَّم ورجب.. فلا تقاتلوهم فيها. أما إذا لم يحترموها وقاتلوكم فيها فأنتم مضطرون لمحاربتهم إلى أن ينتهوا عن ذلك.

وقوله تعالى (والحرمات قصاص) يتضمن تعليما مبدئيا بأن يُقتص للأشياء ذات الحرمة، فحرمتها لا تمنع من أخذ القصاص. وقد شرح ذلك في قوله (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم).. أي لو اعتدوا عليكم و لم يحترموا الأماكن المقدسة، فعاقِبوهم على شرهم واعتدائهم هذا، ولا تحترموا أماكنهم المقدسة، لأنهم قد هتكوا حرمتها بأنفسهم، ولكنه أضاف (واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين).. عليكم أن تخافوا الله دائما، ولا تتجاوزوا الحدود، بل تذكّروا دائما أن الله ينصر المتقين. لقد سمحنا لكم بالقصاص إذا هتكوا حرمة الأماكن المقدسة، ولكن الذي يريد مقاما عاليا في التقوى عليه أن يضع في الاعتبار قول الله (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) (الشورى: ٤١).. فلو عفا عن العدو، إذا كان العفو وسيلة لإصلاح العدو، فهذا عمل مستحسن، وينال فاعله الأجر من الله تعالى.

وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(١٩٦)

التفسير: لقد أخطأ الناس في فهم هذه الآية. فكلما يطالَبون بعمل فيه مشقة في سبيل الله يقولون على الفور: كيف نفعل ذلك، إنه بمثابة إلقاء النفس في التهلكة؟ مع أن الآية لا تعني أبدا أن يجبن المؤمن أو يخاف من موقف فيه خطر الموت، وإنما المعنى الحقيقي لها أنكم إذا كنتم في حرب العدو فيجب أن تُكثروا من إنفاق أموالكم في سبيل الله، أما إذا بخلتم بها فهو بمثابة إلقاء أنفسكم إلى التهلكة بأيديكم. فقد ورد في الحديث عن أبي أيوب الأنصاري وهو مع الجيش لفتح القسطنطينية، فقال إن هذه الآية نزلت فينا نحن الأنصار. (لما نصر الله نبيه ﷺ، وأظهر الإسلام قلنا: هلم نقيم في أموالنا ونصلحها. فأنزل الله (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) فالإلقاء بأيدينا إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد) (أبو داود،الجهاد). فلا تجمعوا الأموال وتبخلوا بها، بل

أنفقوها في سبيل الله بكثرة وإلا تهلكون أنفسكم، لأن العدو يهاجمكم وتكون العاقبة هلاككم.

كما أن الآية تنبه المسلمين إلى إعانة إخوانهم الفقراء وتقول: أدوا ما عليكم من زكاة وعُشر، إلى جانب اشتراكات تطوعية عليكم أداؤها. فأنفقوا في سبيل الله على إخوانكم الفقراء، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة. أيها الأثرياء، لو تطوعتم بأموالكم الزائدة عن حاجاتكم.. فهي أموال لن يضركم إنفاقها لأنها فوق حاجتكم، ولكن إذا لم تفعلوا ذلك فسوف تهلكون.

وكأن الله قد صوّر هنا أفضل تصوير الأحداث التي وقعت مؤخرا للقيصر الروسي، فكأنه قال: إذا لم تفعلوا ما أوصيكم به فسوف تتعرضون لما تعرّض له هذا الملك والأمراء الروس، وكذلك الملك والأمراء الفرنسيين، فإن عامة الناس سوف يضيقون بكم ذَرعا، ويضطرون لنهب أموالكم، ويقرءون عليكم الفاتحة كما قرأها أهل شاهبور! وقصة أهل شاهبور هذه كان يرويها سيدنا الخليفة الأول للإمام المهدي، وتتلخص في أن الفلاحين هناك كانوا يستدينون من تجار هندوس، وكان الدَيْن يتراكم عليهم بحيث لا يستطيعون سداده. فكانوا يجتمعون ويبحثون فيما بينهم كيف يدفعون للتاجر، فلا يجدون وسيلة فيقولون: لنقرأ الفاتحة! ثم يذهبون إلى قصره ويقتلونه وينهبونه ويحرقون دفاتر الديون. وهكذا كانوا يفعلون مع التجار واحدا بعد الآخر.

فالله يشير هنا إلى هذه الحقيقة نفسها، ويقول: نأمركم بإنفاق ما زاد من أموالكم في سبيل الله، وألاّ تلقوا بأيديكم إلى التهلكة. اكتسبوا الأموال كما يحلو لكم، ولكن لا تجمعوها وتكتروها في بيوتكم، وإلا فإن الناس سوف يثورون عليكم في يوم من الأيام فتهلكون.

(وأحسنوا) أي أدوا واجباتكم أحسن أداء. أو إذا كان الله قد أعطاكم سعة من المال فيجب أن تتحملوا نفقات إخوانكم الفقراء، وتبحثوا عن طرق جديدة للخير والبر.. بأن تقللوا من نفقاتكم الذاتية، وتوفروا مزيدا من المال للإنفاق في سبيل الله. ويجب ألا تفعلوا ذلك خشية الناس، بل لتفعلوا ذلك عن طيب خاطر. لو

فعلتم ذلك مخافة الناس لتحققت معونة الفقراء، ولكن الله لن يرضي عنكم. أما إذا قدَّمتم هذه التضحية عن طيب خاطر.. جمعتم بين فرح الفقراء ورضوان الله.

(إن الله يحب المحسنين) لو فكرتم: ما الفائدة من كسب الأموال؟ فالجواب أنكم سوف تنالون الجزاء على إنفاق هذه الأموال.. أي تكونون محل رضا الله ومحبته، وبذلك تصلحون عقباكم فضلا عن دنياكم.

هذا المعنى لقوله (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) يُفهم بالنظر إلى السياق، ولكن هناك معنى آخر وهو: فيما يتعلق بالعبادات أو الأكل والشرب أو بذل المجهود وتحمل المشقة أو النظافة والطهارة.. لا تسلكوا طريقا يؤدي إلى الإضرار بصحتكم أو نفسكم أو عقلكم أو أخلاقكم. فكلمة (التهلكة) تعني كلّ فعل تكون نتيجته هلاكا وعقباه سيئة، وباستخدامها أشار الله إلى أن الإسلام لا يمنع من تعريض النفس للموت لأجل الحفاظ على الدين والشرف والجاه والحضارة، وإنما يمنع من أعمال لا يُرجى منها نتائج طيبة وفيها خطر ضياع النفس أو ضياع أي منفعة.

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنْ الْهَدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنْ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضري المسْجِدِ الحرام واتقوا الله واعلموا أَنَّ الله شَدِيدُ العِقاب (١٩٧)

التفسير: من هنا يبدأ ذكر الأحكام الخاصة بالحج والعمرة. الحج ركن هام من أركان الإسلام. وكل من يريد حج بيت الله الحرام عليه أن يُحرم عند وصوله إلى الميقات. والميقات اسم للأماكن التي يُحرِم من عندها الحجاج بحسب التعاليم الإسلامية. والميقات للحجاج القادمين من المدينة المنورة "ذو الحليفة" ولأهل الشام "الجحفة " ولأهل العراق "ذات العرق" ولأهل نجد "قرن المنازل " ولأهل اليمن

"يلملم " وميقات الحجاج من باكستان أيضا يلملم، ويحرمون داخل السفينة بإزائها. ومن هم دون هذه المواقيت لا حاجة بهم إليها، وإنما عليهم أن يُحرموا من حيث يقيمون.

ويبدأ الإحرام بأن يقُصَّ المحرم شَعره، ويستحم، ويتعطر، ثم يستبدل الثياب المخيطة بإزار حول خصره، ورداء على جسمه، ويترك رأسه حاسرا، ويصلي ركعتين نفلا، ثم يقضي أوقاته في التكبير والتلبية والتسبيح والتحميد، ويردد (لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك). ويجب أن يردد هذه التلبية بعد كل صلاة بصوت مرتفع ولا يجوز للمحرم لبس الثياب المخيطة كالسروال والقميص والبيجاما والمعطف، وأغطية الرأس والجورب، واستخدام العطر، ولبس الثياب المعطرة أو الملونة، أو قص الشعر أو نتفه، أو تقليم الأظافر، أو التفلية من القمل أو قتله، أو صيد حيوانات البر، أو ذبح الصيد، أو تحريض أحد على الصيد، أو إعانة الصائد، أو العلاقات الجنسية، أو الكلام الشهواني أو فحش الحديث، أو ترديد الغناء الفاحش، أو الوقوف مواقف الفسق، أو الفجور، أو الشجار. كل هذه أمور محرمة على المحرم.

ويجوز للمحرم أن يغتسل، ويغسل ثيابه، ويصطاد صيد البحر، ويجب على النسوة أن يلتزمن بكل هذه الأمور.. إلا أنه ليس ضروريا لهن لبس الثياب غير المخيطة، وإنما لهن أن يلبسن الملابس العادية، ويغطين رؤوسهن دون ستر الوجه.

وعلى الحاج أن يراعي آداب الحرم عندما يقترب من حدوده في مكة وما حولها.

وعندما يقع نظره لأول مرة على بيت الله تعالى فليرفع يديه للدعاء، فهذا وقت قبول الدعاء. وعندما يصل إلى البيت الحرام يطوف بالكعبة المشرفة سبع مرات، بادئًا طوافه من عند الحجر الأسود، وإذا أمكن له فليقَبِّل الحجر الأسود في كل شوط، وإذ لم يستطع ذلك فعليه أن يشير إليه بيده. وبعد الفراغ من الطواف يصلي ركعتين نفلا. ثم يقوم بالسعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط. ويبدأ أول شوط من الصفا، وينتهي الأخير عند المروة.

ثم يقيم الحاج في مكة المشرفة حتى الثامن من ذي الحجة، وفيه يخرج إلى منى ويصلي هناك الصلوات الخمس من الظهر إلى الفجر، وفي الصباح من يوم التاسع بعد صلاة الفجر يخرج من منى ليصلَ إلى عرفات بعد الزوال، وهناك يصلي الظهر والعصر جمعا، ويبقى في عرفات حتى بعد مغيب الشمس ويقضي أوقاته في الذكر والدعاء والعبادة. وبعد غروب الشمس يرجع إلى المزدلفة ليصلي المغرب والعشاء جمعا، ويبيت هناك منهمكا في العبادة والدعاء، وبعد صلاة الفجر لليوم العاشر من ذي الحجة، وقبل طلوع الشمس يذهب إلى المشعر الحرام ليدعو هناك، ثم يذهب إلى منى. وعندما يصلها بعد طلوع الشمس يرمي فقط جمرة العقبة سبع حصوات، ويردد عند كل رمية (الله وأكبر) ثم يذبح أضحيته ويحلق رأسه. ثم يذهب في هذا اليوم أو اليوم التالي إلى مكة المكرمة ليطوف حول الكعبة. والأفضل أن يقوم بهذا الطواف طواف الإفاضة مساء هذا اليوم. وفي اليوم التالي يرجع إلى منى ليرمي الجمار كلها قبل الزوال بدءًا بالجمرة الصغرى، ثم الوسطى، ثم العقبة.. سبع حصوات في كل مرة. ويكرر هذا العمل في اليوم الثالث والرابع أيضا. وتسمى الأيام التالية ليوم النحر: ١١و١٢و١٣ من شهر ذي الحجة "أيام التشريق". ومن اليوم الثالث عشر يعود الحاج من منى ويقوم بطواف البيت الحرام طواف الوداع. والذي يقوم بكل هذه المناسك يكون قد أدى فريضة الحج وأرضى الله تعالى.

والعمرة أن يُحْرِم الإنسان من داخل الحرم إن كان هناك، أما إذا كان قادما من خارج الحرم فليحرِم من ميقاته. ويقوم المعتمر بالطواف بالكعبة سبع مرات، ويسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط، ثم يحلق رأسه أو يقصر شعره. وإذا أراد أن يقدم الهَدْي فليذبحه. ولكن ليس بضروري أن يقدم هديا للعمرة.

والفرق بين الحج والعُمرة أن العمرة تؤدّى في أي وقت من السنة، أما الحج ففي شهور معينة.. هي شوال وذو القعدة وذو الحجة. عن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن العمرة: أواجبة هي؟ فقال: لا، وأن تعتمروا خير لكم (الترمذي، الحج).

(فإذ أحصرتم فما استيسر من الهدي).. هنا بين الله أنه إذا خرج المسلم بنية الحج أو العمرة، ثم اضطر للتوقف في الطريق لمرض أو حرب أو أي سبب قهري آخر.. فلم

يستطع الوصول إلى مكة المكرمة ليقوم بمناسك الحج أو العمرة، فعليه أن يقدّم ما تيسر من الهدي ولا يخرج من إحرامه إلا بعد أن يبلغ الهدي محله، أي يصل الهدي إلى مكان ذبحه، ويقول ابن القاسم: إذا كان معه الهدي قدَّمه وإلا فلا. وقول الجمهور إنه يقدم الهدي حيث أُحصر ثم يقوم بحلق رأسه وهو آخر منسك في الحج، ثم يخرج من الإحرام. ويقول الإمامان الشافعي ومالك إن المراد من(مَحِلِّه) نفسُ المكان الذي أُحصر فيه ولكن الإمام أبا حنيفة فيرى أن الحرم هو محل الهدي (البحر المحيط).

ولكنني لا أرى داعيا لهذا الاختلاف، لأنه لو كان هناك حرب أو حالَ العدُوُ دون وصوله إلى مكة فكيف يمكن أن يوصل هدْيَه إلى مكة؟ فلا بد في هذا الحال أن يقدم الهدي حيث أُحصر ويحلق رأسه. وإذا كان قد اضطُر للوقوف في الطريق بسبب مؤقت كالمرض، يرسل هدْيه مع الآخرين إلى الحرم إذا استطاع ذلك، كي يُذبح داخل حدود الحرم، ثم يحلق رأسه.

تتضمن هذه الآية إشارة أيضا إلى أنه سيأتي وقت على المسلمين يُمنعون فيه جبرا من زيارة بيت الله الحرام، ولكن الله سوف يمكنهم من التغلب على الكفار، ويستطيعون أداء الحج في أمن وسلام، وهذا ما حدث في صلح الحديبية حين خرج النبي ﷺ بنيّة الطواف ببيت الله الحرام ، ولكن قريشا لبسوا جلود النمور، وأخذوا معهم نساءهم وأطفالهم، وأقسموا على الموت أنهم لن يسمحوا للمسلمين بدخول البيت الحرام. وفي آخر المطاف تصالح الطرفان على ألا يدخل المسلمون مكة هذا العام، وإنما يأتون في السنة التالية للطواف حول الكعبة، فرجع النبي وصحابته، و لم تمض فترة طويلة حتى فتح المسلمون مكة وبدءوا يزورون الكعبة بحرية تامة.

(فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك).. هنا يقول الله إنه إذا أصيب الحاج بمرض أو أذى في رأسه مما يضطره لحلق الرأس.. كأن يكثر في شعره القمل، أو تخرج بثور في جلد رأسه، فله أن يحلق رأسه، وعليه في هذا الحال أن يؤدي فدية صيام أو صدقة أو نسك.

و لم يحدد هنا الفدية بأقسامها الثلاثة.. ولكن الرسول ﷺ عيَّنها في أحد أحاديثه. فقد ورد أن الصحابي كعب بن عُجرة أصيب في رأسه بالقمل، وكثرت الحشرات حتى كانت تتساقط على وجهة، ولما رآه الرسول في هذا الحال قال له(لعلك آذاك هوامُّك؟ فقلت: نعم، يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: احلق رأسك، وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو انسك شاة) (الموطأ، الحج).

وأرى أن ترتيب الفدية في الآية وارد بالنظر إلى فقر الإنسان أو ثرائه، فإذا كان فقيرا صام ثلاثة أيام، وإذا كان متيسرا فعليه إطعام ستة مساكين، وإذا كان ثريا فليقدم نسكا. فالأولى أن يقدم الذبيحة، وإلا فالصدقة وإلا فالصيام. وهذا الحكم ليس للمحصَر فقط وإنما لغير المحصَر أيضا.

(فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي).. إذا انتهت الحرب أو زالت العوائق الأخرى، فمن أراد بعد ذلك أن يجمع بين العمرة والحج.. أي يؤدي جمع القِران أو جمع التمتع، فعليه أن يقدم من الهدي ما تيسر.

أوّلا ذكر أحكام الحج والعمرة على حدة، والآن يذكر أحكامهما معا. وأرى أن المراد من التمتع ليس التمتع الاصطلاحي، وإنما حج القران وحج التمتع كلاهما، يزور الناس مكة المشرفة بأربعة صور: أولا: للحج فقط؛ وثانيا: للعمرة فقط؛ وثالثا: للتمتع، ورابعا: للقران.

والقران أن يخرج الإنسان في أشهر الحج ويُحرم من الميقات بنية الحج والعمرة معا، وبعد وصوله إلى مكة المكرمة يقوم بمناسك العمرة، ويبقى على إحرامه حتى يفرغ من مناسك الحج. وبعض الناس يرون أن على القران طوافا واحدا وسعيا واحدا، ويرى البعض الآخرون أن عليه طوافين وسعيين، وعندما يرجع يطوف طواف الوداع (فتح الباري، الحج).

أما التمتع فهو أن يخرج الإنسان في أشهر الحرم بنية العمرة والحج، محرما من ميقاته، وعندما يدخل مكة يطوف ويسعى، ثم يحلق أو يقصر شعره، ثم يُحِل من إحرامه، وينتظر يوم الثامن من ذي الحجة ليحرم مرة أخرى إحراما جديدا بنية الحج ويؤدي مناسكه.

وفي كل من القران والتمتع يجب تقديم الهدي.. أما في الأفراد بالعمرة وحدها أو الحج وحده فتقديم الهدي مستحب، وإذا خرج بنية الحج أو العمرة ثم أحصر فيجب عليه أن يقدم الهدي، وما لم يُذبح الهدي فلا يجوز له أن يحل من الإحرام بتقصير أو حلق رأسه. وإذا استطاع فليبلغ هديه إلى مكة ويظل على إحرامه حتى يبلغ الهدي محله.

ثم أضاف (فإذا أمنتم) ليبين أن هذا الحكم للتمتع أو القران خلاف الحكم السابق. ففي صورتي القران والتمتع يجب تقديم الهدي. أما في صورة الإفراد بالحج أو العمرة فتقديم الهدي ليس ضروريا.. إلا إذا أُحصر الحاج. وإذا لم يستطع القارن أو المتمتع تقديم الهدي فعليه صيام ثلاثة أيام في مكة وسبعة أخرى بعد رجوعه منها.

قوله (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم. تلك عشرة كاملة) للعلماء في (ثلاثة أيام) أقوال:

١ – رأى البعض أن يصوم هذه الأيام في السابع والثامن والتاسع من ذي الحجة؛

٢ –قال الإمام أبو حنيفة: إذا لم يصم في هذه الأيام فعليه تقديم الهدي أيضا؛

٣ –قال البعض إنه ما دام صومها عوضا عن الهدي فيجب أن يصومها بعد الحج؛

٤ –قالوا أن يصومها في مكة قبل رجوعه؛

٥ –أن يصومها فيما بين إحرام العمرة والحج (البحر المحيط).

وأرى أنه يجب صيام هذه الأيام الثلاثة في أيام التشريق (١١، ١٢، ١٣ من ذي الحجة)، فقوله (في الحج) يعني في أيام الحج. أما الأيام السبعة الأخرى فيصومها عندما يرجع إلى بيته. ولقد زاد عبارة (تلك عشرة كاملة) كي لا يُظن أن "واو العطف" في قوله (وسبعة إذا رجعتم) بمعنى "أو"، فيقول أحد خطأ أن له أن يصوم ثلاثة أيام في الحج أو سبعة إذا رجع. فبيّن أن المراد إكمال أيام الصوم إلى عشرة أيام.

أو جاءت هذه الجملة للتأكيد، بمعنى أن صيام الأيام العشرة فدية كاملة عن الهدي أو تعويض عن ثوابه.

قوله (ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام).. أي أن التمتع والقران لمن ليس من أهل مكة، لأن هؤلاء يتحملون المشقة في السفر إليها. أما أهل مكة فيمكن لهم أن يؤدوا العمرة في أي وقت ولا مشقة عليهم في ذلك، فلا تمتع ولا قران لهم.

وهناك اختلاف بين المفسرين في معنى قوله (ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام) فيرى البعض أن رخصة الصيام عند عدم تيسر الهدي إنما هي لمن ليس من أهل مكة؛ أما أهل مكة فيمكنهم الحصول على الهدي بسهولة من بلدهم فلا رخصة لهم. وهذا مذهب الإمام الشافعي.

ويرى الآخرون أن الأمر بالصيام ليس موجها لأهل مكة وإنما لمن هو خارجها. ولكنني أرى أن كلا المعنيين غير صحيح، لأن في هذا تيسيرا وسهولة لأهل مكة.

ويرى الإمام أبو حنيفة أن في هذه العبارة إشارة إلى التمتع والقران.. أي أن التمتع والقران لا يجوز لأهل مكة (المرجع السابق). وأرى أن هذا الرأي هو الأصح والأقرب للمنطق والعقل.. لأن أهل مكة يستطيعون القيام بالعمرة في أي وقت.

ثم هناك اختلاف في تعيين معنى قوله (حاضري المسجد الحرام) يرى ابن عباس ومجاهد أن المراد هم كل من في الحرم. ويرى عطاء أنهم كل من دون المواقيت. وقال الزهري: هم كل من يقيم على مسافة يوم أو يومين من الحرم. وقال البعض: هم أهل مكة (المرجع السابق). وأرى أن هذا المعنى الأخير هو الأقرب للقياس.

وأخيرا قال (واتقوا الله).. أي أن الغاية من عبادة الحج أن تتولد التقوى في قلوبكم، وألاّ تنظروا إلا إلى الله. وتجعلوه جُنّة لكم. إذا لم تحصل هذه الغاية للحاج من حجه أو عمرته لبيت الله فليدرك أن كِبْرا خفيا فيه قد حال دونه ودون هذه السعادة. فعليه أن يضع جبينه أمام الله على الأرض، وفي وقت انفراد، في زاوية من الخمول، ويستغل ما بقي في قلبه من إخلاص للبكاء والابتهال، أو على الأقل يتباكى، ويتوسل لربه في خشوع وضراعة: يا رب، لقد بذر الآخرون بذرهم، فنبت وأثمر، هم مسرورون سعداء لأنهم تمكنوا من إعداد بساتين روحانية لأنفسهم ولأجيالهم. وأرى يا رب، أن بذرتي لم تنبت.. فلعل طائرَ استكباري قد أكلها، أو

وحش همجيّتي قد داسها، أو وبال أعمالي السابقة تحول إلى حجر وقعت عليها فحالت دون إنباتها! يا رب، ماذا أفعل الآن؟ عندما كنت أملك شيئا أنفقه دون حذر واحتياط فلم ينفعني. أمّا اليوم فليس في قلبي شيء! ليس في بيتي حبة من إيمان لأزرعها. فيا رب، هيّئ بذرتي الضائعة، وأرجع لي متاع الإيمان الذي فقدتُه! إذا كان إيماني قد ضاع فأتوسل إليك أن تهب لي بيدك ومن خزائنك بذرة من رحمتك.. هَبْها لهذا العبد المطرود المردود حتى لا أصبح أنا وأجيالي محرومين من رحمتك، وحتى لا تتأخر أقدامنا عن مقام إخواننا الصادقين الذين يضحون تضحيات صادقة عالية، وحتى نسير كتفا إلى كتف مع عبادك المقبولين!

وبقوله(واعلموا أن الله شديد العقاب) نبّه أن تكونوا دائما في خشية من مؤاخذة الله، وأن تؤسسوا أعمالكم على تقوى الله، وإلا يضيع إيمانكم السابق، وتصبحون محطا لغضب الله.

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٨)

شرح الكلمات:

رفث-الرفث كلام متضمن لما يُستقبح ذكره من الجماع ودواعيه، وجُعل كناية عن الجماع (المفردات). وقال الطبري: الرفث اللغو من الكلام.

فسوق-الفسوق هو عدم طاعة أوامر الله عن عصيان؛ الانحراف عن قصد السبيل (الأقرب).

التفسير: أشار بقوله (الحج أشهر معلومات) إلى أن القرآن لم يأت في صدد الحج بحكم جديد، وإنما استبقى ما كان يفعله الناس منذ زمن إبراهيم، ولذلك فإن شهور الحج معروفة لدى الناس.. أي شوال، وذو القعدة، وذو الحجة.

ويرى الإمامان أبو حنيفة والشافعي أن الأيام العشرة من ذي الحجة من أشهر الحج وليس كل ذي الحجة (البحر المحيط).

(فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج).. أي من انتوى الحج فيها وخرج لأداء هذه الفريضة فعليه أن يحفظ لسانه طاهرا، فلا ينطق بما يثير الأهواء الجنسية. ويقول البعض إن إنشاد الشعر الغزلي لا يندرج تحته، لأن ابن عباس أنشد ذات مرة شعرا جاهليا أيام الحج. ومثل هذه الرواية لا يمكن أن تُعتبر صحيحة بعد هذا الأمر القرآني الواضح. أما لو قبلناها على سبيل الافتراض، فلا نستطيع الجزم بنوع هذه الأبيات بعد مرور زمن طويل. فقد يكون قد أنشدها استدلالا في حديثه على ما يقول، وظن السامع أنه ينشدها للمتعة. وعلى أية حال.. يجب اجتناب هذا الكلام نظما كان أو نثرا، وعلى الإنسان أن يقضي هذه الأيام في ذكر الله وعبادته فقط.

ولا يعني أسلوب النهي هذا أن الرفث والفسوق والجدال جائز في الأيام الأخرى، وإنما الحكمة فيه أن الإنسان لو ضغط على نفسه ليتجنب عملا لفترة فإن الله تعالى يوفقه لاجتنابه في الأيام الأخرى أيضا.. لأن التدريب يسهل عليه هذه المهمة. وبعض الأحيان لا يجد الإنسان –بسبب ضعفه البشري – في نفسه الهمة على ترك أمر لمدة طويلة، ولا بد لتأهيله لهذا الأمر من تدريبه بأن يُنهى عنه لبعض الوقت، وعندما يمتنع عن فعله لمدة مناسبة تتولد فيه القدرة على ضبط النفس، وهكذا يستعد بالتدريج للامتناع عنه كلية. ونظرا إلى نفس هذه الحكمة قال سيدنا المهدي والمسيح الموعود (عليه السلام) إنه يجب على الإنسان في شهر رمضان كل مرة أن يحاول التغلب على أي تقصير أو ضعف فيه. ساعيا إلى تجنبه طوال الشهر، وعندئذ سوف تشمله رحمة الله وتأييده بعد رمضان أيضا، ويُوفق للتغلب على هذه السيئة للأبد.

لقد ذكرت الآية ضرورة اجتناب ثلاث مساوئ هي: الرفث والفسوق والجدال، والرفث ما يكون بين الزوجين من علاقة خاصة، وكذلك يُطلق على فاحش الكلام والسباب، وسماع لغو الحديث وتافهه. والفسوق هي تلك الآثام التي تتعلق بذات

الله تعالى والتي بارتكابها يخرج الإنسان عن طاعته والاستسلام له. ثم الجدال وهو ما يقطع الصلات بين الناس. والحقيقة أن الله بهذه الأمور الثلاث وجّه النظر إلى الإصلاح من ثلاثة أنواع: أولا-يجب أن تصلحوا أنفسكم وتُطهروا قلوبكم من كل أنواع الميول السيئة غير الطاهرة. وثانيا-أن تبقوا على صلة إخلاص بالله تعالى. وثالثا-أن تنشئوا علاقات المحبة مع الآخرين. وكأنه تعالى لم ينه هنا عن ثلاثة أنواع من السيئات فقط، بل قد نهى عن كل السيئات.. إذ لا سيئة تبقى خارجة عن هذه الثلاث. فالسيئة إما تتعلق بالإنسان نفسه، أو بالله تعالى، أو بسائر الخلق. ومن الضروري للرقي الروحاني أن يهتم الإنسان بعد إصلاح نفسه بأداء حقوق الله تعالى وحقوق العباد.

(وما تفعلوا من خير يعلمه الله).. نعلم أن اجتنابكم هذه الأمور سوف يعرضكم لأنواع الصعاب.. فمثلا لو سبّكم أحد يصعُب عليكم الصبر عليه، وعندما تتقيدون بهذه القيود لوجه الله تعالى، وتشتركون في فعل الخيرات، فمهما تفعلوا من خير فإن الله يُظهره لا محالة، لأن من سنة الله تعالى أنه لا يُبقي أي حسنة وخير خفيا. صحيح أن بعض الحسنات تبقى في طي الكتمان أحيانا، ولكن لا بد في آخر الأمر أن تظهر، ولا يملك العدو إلا أن يعرفها ويعترف بها. انظروا إلى معارضي النبي ﷺ.. كيف كانوا يسبونه، ولكن أبا سفيان لم يستطع أن يعيبه أمام الإمبراطور هرقل، وكل ما استطاع أن ينال منه هو أن قال: بيننا وبينه معاهدة ولا ندري هل سيفي بها أم يخلفها (البخاري، الوحي). فالله يقول: مهما فعلتم من خير فإن الله سوف يظهره لا محالة، ولا بد أن يترك حسن سلوككم وسمو أخلاقكم وقعا طيبا في الناس.

(وتزودوا) أي إذا خرجتم للسفر فخذوا معكم زادكم. قال من قبل (وما تفعلوا من خير يعلمه الله).. وبذلك حث على الرقي في فعل الخيرات والحسنات على وجه الخصوص، والآن أضاف (وتزودوا).. أي صحيح أن أداء الحج والعمرة فيه ثواب كبير، ولكن ذلك لا يعني أن تخرجوا شوقا إلى الكعبة صفر الأيادي، ثم تتسولوا وتسألوا الناس لتصلوا إلى الكعبة. وإنما عليكم أن تأخذوا معكم زاد

السفر. ينبغي أن توفروا معكم نفقات الذهاب والإياب والإقامة والطعام وما إلى ذلك، ثم تخرجوا إلى هذا السفر. (فإن خير الزاد التقوى) وتذكروا أن أفضل الزاد هو ما تتجنبون به عن السؤال والإثم.

وللأسف أن المسلمين في هذا الزمن عموما يظنون أن الإسلام يأمر الإنسان بعدم الأخذ بالأسباب وترك كل أمره على الله. ولكن هذا خطأ ومخالف تماما لتعاليم الإسلام. لذلك ينصح الله المسلمين هنا أنكم إذا خرجتم فلا تتغافلوا عما تحتاجون إليه من زاد في هذا السفر.

ويعني أيضا قوله (وتزودوا) أن تأخذوا زاد التقوى في هذا السفر. ولما كان زاد التقوى خفيا؛ لذلك زاد في توضيحه وقال (إن خير الزاد التقوى).. أي أن التقوى هي أفضل زاد ينفعكم في رحلتكم إلى الآخرة.

وبهذا المعنى نصح مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية أفرادها: (الوقت قليل، ولا ضمان للعمر. أسرعوا الخطى، لأن المساء قريب، وافحصوا مرة بعد أخرى ما تريدون تقديمه كيلا تنسوا وراءكم شيئا فتخسروا، أو تأخذوا ما هو فاسد ومتاع كاسد لا يليق بالتقديم إلى الملك)(سفينة نوح ص٢٦،الخزائن الروحانية، ج١٩).

ولما كان الحديث من قبل عن الحج فنبه بقوله (إن خير الزاد التقوى) أن مسئوليتكم قد ازدوجت وزادت، ويجب أن تلتزموا التقوى أكثر.. كالذي يلبس ثيابا نظيفة ويلتزم الحذر كله حتى لا يصاب لباسه بما يلوثه ولو قليلا.

(واتقون يا أولي الألباب). أيها العقلاء، إذا أردتم الأخذ بأسباب نجاتكم فاخضعوا لي، وأنيبوا إلي، واتخذوني وحدي سببا لحفاظتكم.. لأن الأسباب الأخرى لا تساوي شيئا أمام هذه الوسيلة.